الفصل السابع

روافة والحرّة

إن الهضبة العظيمة التي تحد حوض تبوك من الغرب وتمتد من منطقة تبوك حتى العقبة والرّم تعرف باسم حسمى وهي قفر واسع من الصخور الرملية وصحارى الرمل التي تفصل جبال مدين الجرانيتية في الشمال عن صحارى حرّة الرحى وحرّة العويرض البركانية السوداء، التي تقع بين حافتها الجنوبية ومنطقة العلا. والحافة الشرقية لهذه المنطقة، عندما تنخفض تجاه بحر تبوك الداخلي الجاف، تسمى اللحى أي الحزام "الضيق" من المنطقة الصالحة للزراعة بين الهضبة والمنخفض. كما أن بقعة رجوم شوهر، والجرثومة، وتبوك بعيونها الخارجية تشكل جزءاً من هذه المنطقة، والتي سنذكر منها عناصر أخرى على مسافة بعيدة إلى الشمال فيما سيأتي ذكره.

في هذه اللحظة كان هدفي الرئيس استكشاف القسم الجنوبي من حسمى على طول حافة الحمم البركانية، على أن تكون روافة نفسها جائزتي الأخيرة. ومن بين جميع من سبقوني من الرحالة لم يزر هذه المنطقة إلا ألويس موسل الذي اكتشف معبدها النبطي -

الروماني بنقوشه الشهيرة. وقد سمع داوتي عنها خلال رحلته الشاقة، والطويلة، والموحشة نزولاً حتى حوض تبوك مع الحجاج، وكان بيرتون على مسافة عشرة أو خمسة عشر ميلاً منها في زيارته لمر الخريطة حيث عرض عليه بدو بني عطية قطعاً من حجر منقوش نشروه بمنشار إلى أجزاء صغيرة يمكن نقلها بالإبل، ولكن ضراوة العرب ونزعتهم للسلب منعته من أي محاولة لزيارة الموقع.

ومن الطريف أن داوتي وبيرتون كانا على ناحيتين مختلفتين من صحراء حسمى في الوقت نفسه، عام ١٨٧٧م، دون أن يدركا أنهما كانا تقريباً على مسمع من بعضهما البعض. ولم يجمع هوبر نقوشاً من المنطقة القريبة لتبوك إلا قبل اغتياله على يد رفاقه العرب بشهور قليلة، بالرغم من أنه لحسن الحظ تمكّن من إيداع جميع سجلاته وكتبه في جدة مباشرة قبل أن ينطلق في رحلته الأخيرة لاسترداد حجر تيماء المشهور. وبعد ذلك بربع قرن من الزمان استطاع كل من جوسين وسافيناك إلى حد ما أن يوسعا المنطقة التي قطعها هوبر، بينما كان كاروثرز يبحث عن البقر الوحشي، أما موسل فقد اكتفى باستكشاف المنطقة.

ومن المدهش حقاً أن أياً منهم لم يكن يعلم بوجود الآخرين في الوقت نفسه، في عام ١٩١٠م، على الرغم من أنهم جميعاً استخدموا السكة الحديد. إن موسل فقط، الذي يعد حتى الآن

أشهر مكتشف لشمال الجزيرة العربية، قد تمكّن من رؤية جزءٍ عظيمٍ من القسم الجنوبي لحسمى، بيد أنه تعرّض لمحن ومصائب عندما دنا تقريباً من نهاية رحلته العظيمة، وكضيف في معسكر عربي، فقد خاض تجربة مروعة تعرّض خلالها للضرب والمعاملة الخشنة على يد مضيفيه من بني عطية، الذين أدت نساؤهم الدور الرئيس في الهجوم على شخصه، والاستيلاء على ممتلكاته القليلة وإتلاف أوراقه. إن أعظم خطر في استكشاف الجزيرة العربية هو خطر فقدان السجلات الثمينة لجولات ورحلات المرء، ولذلك التزمت دائماً عادة اعتدتها، في رحلاتي الأكثر أهمية، وفي إفادة رفاقي بأنه، في حالة حدوث أي شيء مؤسف لي، فإنني سوف أتقبل بسرور استيلاءهم على جميع ما لدي من أصول سائلة، وبإمكانهم مضاعفة قيمتها عن طريق إعادة كتبي وأوراقي عديمة القيمة إلى أقرب قنصلية بريطانية أو أي جهة مسؤولة أخرى. ربما أكون قد بالغت في أهمية سجلاتي، ولكن، إذا قدر لي أن أموت، فسيكون بعض ما يبعث على رضاي هو التأكد من أن السجلات الكاملة لأنشطتي ستكون متاحة للأجيال القادمة.

في ١٦ يناير ١٩٥١م، بعد وصولي تبوك بيوم واحد، انطلقت في أولى جولاتي بجنوب حسمى ومن مركز الشرطة في عين كرّيم دخلنا وادي الخور (خور الرايّس)، ومن رأسه مررنا في سهل وادي

البَقّار الواسع، الذي يجمع المياه المنصرفة من ستة شعاب محلية وهو في طريقه باتجاه حوض تبوك. وعندما سرنا مع ضفته اليمنى، أتينا على قلعة قصير التمرة الحجرية الصغيرة التي زارها من قبل هوبر وجوسين وسافيناك. ومثلما فعلوا، فقد نسخت النقش الثمودي على لوحة الحجر الرملي الطويلة فوق المدخل من الجانب الشرقي، على مسافة ثلاثة أقدام فوق مستوى الأرض، وبارتفاع قدمين ونصف القدم وعرض ٢ قدمين.

إنه يبين فقط اسم اثنين من الرجال، اللذين قد يكونان من بناة القلعة. وتبلغ مساحة المبنى ١٥ قدماً مربعاً، وهو مشيّد من اثني عشر مدماكاً غير متساوية من ألواح الحجر الرملي المشذب الذي بُني بناءً حسناً ومتماسكاً بدون ملاط. ويبلغ سُمك الجدران قدمين ونصف، بينما يستند السقف على عمود في الوسط من ألواح الحجر الرملي الصغير مساحة قدمان ونصف القدم وشكله مربع تقريباً. يوجد أمام هذا البناء رصيف منبسط طوله حوالي ٢٠٠ ياردة وعرضه ٢٠ ياردة، وفيه مساحة مستطيلة مسطحة محددة بعلامات من ألواح الحجر الرملي المحيطة بها. وعلى المنحدرات المجاورة كان هناك الكثير من الدوائر الحجرية، ربما كانت تحيط بخيام البدو، وكانت قلعة قصير التمرة بلا ريب مركز مراقبة قديم في خطة الدفاع عن تبوك، والنقش، الذي من الواضح أنه لا يزال في موقعه

الأصلي، يبـدو أنه يعـود تاريخ بنائه إلى مـا لا يقل عن ألفي سنة. ومن المحتمل أنها كانت مصممة للإشراف على النقاط شبه الدائرية التي تلتقي عندها الشعاب المختلفة القادمة من المرتفعات الغربية مع وادي البقّار الواسع وهي من اليسار لليمين شعيب صليتية وشعيب عيرين الذي ينضم على الجانب البعيد من جبل عيرين الأسود قبل أن يصل إلى ملتقى الأودية الثلاثة من الغرب، والحدارة والشميم وقنا. والجهة البعيدة من وادي البقار يحدها جبل الخليل الذي يمتد من ورائه وادٍ آخـر بالاسم نفسـه وهو رافـد أيضـاً من البـقـار يصب للأسفل. وهكذا فإن قلعة قصير التمرة تحتل موقعاً استراتيجياً هاماً، على الرغم من أن الحامية فيها لا يمكن أن تكون كبيرة جداً.

من هنا اتجهنا نحو الجنوب - الشرقي في وادي صليطيات حتى تل أم جهايب المدهش إلى حد ما، المواجه للطرف الشرقي من جبل عيرين. وبعد أن صعدنا منحدراً وعراً، ولكنه ليس صعباً، أتينا إلى سفح قـمـة مستـدقـة رائعـة، كـان بجـوارها درب للإبل يأتي من الجرثومة والتلال المنخفضة في الشرق نزولاً إلى فتحة عيرين. ولم نعثر على نقوش، وكانت رؤية المنطقة المجاورة ضعيفة وتمتد أمامنا جبال عيرين البازلتية مع قناة صليطيات على طول جانبها البعيد، وقد شهدت سيلاً في الآونة الأخيرة، وقد طاف على المنطقة سرب من الجراد بين الفـترتين الأولى والثـانيـة للسيـول. وبعـد أن عـدنا

للسيارة لتناول الغداء سرنا نحو وادي صليطيات مروراً بمرتفع عيرين حتى كتلة مقيال عيرين الصخرية المعزولة، وهنا وعلى المرتفع وصخوره المتساقطة وجدنا عدداً وافراً من النقوش النبطية والثمودية، وأيضاً على جبل مبنى أبي زيد من الحجر الرملي المجاور، والمعروف أيضاً باسم مبنى البيت الذي يبلغ طوله ميلاً وعرضه نصف ميل. وكنا الآن على الجانب الشرقي من جبل عيرين الذي كان قسماه الاثنان اللذان يفصلهما شعيب بنفس الاسم، يمتدان من الجنوب - الغربي إلى الشمال - الغربي أمامنا، وللجنوب وليس ببعيد عنا تقع حافة منطقة بركانية. وواصلنا السير في قناة صليطيات عبر شريط من الحجر الرملي تغطيها ألسنة من الحمم البركانية حتى أتينا إلى منطقة تعرف باسم مقيال أبي زيد تحت الجبل الأول للحرّة الحقيقية، وكانت محاطة بألواح من الحجر الرملي المتساقطة من جبل شريف المضرع، بينما أمامنا يمتد جبلا أتانه والدبيساء من جبال الحرّة.

وقد وصلنا إلى نقطة ترتبط بالأسطورة المحلية بالهجرة التاريخية لقبيلة بني هلال، بقيادة زعيمها الشهير أبي زيد الهلالي، من موطنها الأصلي في جنوب الجزيرة العربية إلى تونس والمغرب. متى حدث ذلك ؟ لا ندري، والنقوش الثمودية التي خلّفها أفرادها وراءهم لا تحوي شيئاً ينير لنا الطريق لمعرفة أعمالهم. والأسماء

الباقية لهذه القرى توحي بأن القبيلة قد قضت ساعات الحر في الظهر عند هذه النقطة وخيّمت أثناء الليل في مبنى البيت الذي مررنا بجواره في رحلة عودتنا إلى تبوك بنفس الطريق الذي سلكناه في الصباح.

وقد قضينا اليوم التالي في رحلة إلى الجزء الشمالي من المنطقة نفسها لاستكشاف وادي الخليل وبعد أن تجاوزنا مركز الشرطة ونخيل الرايّس توقفنا عند نتوء قضمة الرايس لمسح المناطق المحيطة بنا مسحاً عاماً من نقطة تقع جنوب تبوك تماماً تقريباً. ومن هنا صعدنا قناة خور مثلما فعلنا من قبل لنصل إلى الضفة اليمنى لقناة المعايزي على الجانب البعيد من وادي البقار الذي عبرناه إلى النقطة التي يدخل عندها شعيب الهدارة فيه.

وفي طريقنا عثرنا على صخور متناثرة عليها نقوش وصور لحيوانات متنوعة، وعند دخولنا في وادي الخليل وجدنا الأرض شديدة الوعورة حتى إنه من المستحيل تماماً للشاحنة أن تسير فيها، وكانت المنطقة كلها مفروشة بالحمم البركانية والبازلت التي حملها الماء، وعزمت على أن أسير مشياً على القدمين إلى النقطة التي يتكوّن عندها الوادي من التقاء عدة فروع وجداول نازلة من الأرض المرتفعة المجاورة، وأحد هذه الفروع هو وادي قناة، الذي تقع فيه بعد مسافة بعيدة قرية وبساتين بالاسم نفسه، والتي ذكرناها من قبل

كأحد المواطن المبكرة التي قطن فيها المهاجرون الأولون من الكعابنة. إنني لم أزر هذا المكان لأنه قد سبق رؤيته ووصفه بواسطة موسل وجوسين وسافيناك وقام الاثنان الأخيران بتسجيل جميع نقوشه. وبدلاً من ذلك طرقت طريقاً صغيراً في قناة أبي طبق التي تهبط باتجاه الشمال - الغربي من الحرّة، وترتفع بالقرب من قمة وطر الشاهقة. ودخولها في حوض الخليل يتميز بمجموعة رائعة من صخور الحجر الرملي العالية، التي وَجَدْتُ عليها قليلاً من النقوش الثمودية. ووادي قناة، الذي يرتفع أيضاً في منطقة بركانية، ينزل من الجنوب - الشرقي ليدخل وادي الخليل حول أرض مرتفعة ناتئة، بينما يهبط وادي الخليل نفسه من خلال وادٍ ضيق من التلال البركانية إلى الغرب، الذي يأتي منه أيضاً شعيب النتيش الذي يسير موازياً لوادي الخليل، وخلف الحافة الطويلة للضفة اليسرى منه، إلى أن يلتقي به قرب النقطة التي تركنا عندها السيارة. والفروع المتجمعة من هذه الشعاب تتدفق للشمال - الشرقي لتلتقي بوادي البقار قبل أن يخرج هذا الأخير من التلال ويدخل في حوض تبوك، ليصب سيوله الغزيرة أحياناً عبر أو تحت خط سكة الحديد في السبخات الشمالية، التي قدّر لي أن أراها بعد ذلك بفترة وجيزة.

وفي هذه الأثناء، وبعد أن قضيت الأيام القليلة الأولى من إقامتي المؤقتة في المناطق الأقرب لتبوك أو حولها، فقد عزمت أن أقوم

برحلة أكثر طموحاً إلى الأطراف الجنوبية - الغربية من حسمى ومعبد روافة. بيد أنني، قبل أن أشرع فيها، كنت مضطراً لاتخاذ الترتيبات اللازمة لكي أتخلص من الفريق الذي صاحبني حتى الآن، وكان علي ثروت أكثر من مساعد ومفيد عندما وافق على تزويدي بأدلاء ورفاق جدد، وكان محمد العريفي وزملاؤه، الذين تخلف واحدٌ منهم في تيماء مع الميكانيكي واللاندروفر، لم يكونوا مستسلمين فقط لاحتمال مفارقتي، ولكنهم لأسبابٍ اكتشفتها فيما بعد، كانوا شغوفين بالعودة لأسرهم في المدينة؛ فقد كان سلوكهم يبسط الأمور، وكان معنا مخزون وفير من المؤن، بعد أن سحبنا تموينا سخياً لأربعة شهور، بناءً على حسابات العريفي نفسه قبل الانطلاق من مدينة النبي صلى الله عليه وسلم.

وتم الاتفاق على أن يتولى زعل بن مرزوق المسؤولية عن جماعتي فيما تبقى من رحلتنا، وأوكلت الأمر إليه في اختيار -من بين أتباع الأمير وخدمه- الرجال القليلين الذين سوف نحتاجهم في الرحلة، علاوة على الأدلاء الضروريين، وكان على العريفي ورجاله أن يغادروا تبوك خلال غيابنا في رحلة روافة، وحيث إنهم أيضاً سوف يحتاجون لمؤن فقد طلبت من زعل أن يتشاور مع العريفي، وأن ينقل نصيبنا من المؤن إلى تبوك لتخزينه هناك خلال غيابنا. عند ذلك بدأت المهزلة.

لقد بدأنا رحلتنا في ٢٠ ديسمبر، وفي ١٩ يناير، عندما كان لنا أن نغادر تبوك لروافة، كنا قد قضينا بالضبط شهراً على الدرب، بينما خلال إقامتنا المؤقتة في خيبر، وتيماء، وتبوك نفسها، كنا ننزل، طبقاً للعادة التي جرينا عليها، ضيوفاً على الأمراء المحليين، ولم نكن نضطر للسحب من مؤنتنا إلا قدراً يسيراً.

ولقد قضينا تقريباً ثمانية عشر يوماً من الشهر في غمرة من كرم وسخاء مضيفينا، وقدّرت الآن أننا سوف نستغرق حوالي شهر لنصل إلى جدة، وخلاله سنكون أيضاً ضيوفاً على الأمراء في مختلف النقاط على الطريق. والمؤن التي جمعناها لأربعة أشهر ستكون أكثر من كافية لطلباتنا، وقلت لزعل أن يزود العريفي ورجاله بقدرٍ سخي من المؤن للأيام القليلة التي سوف يقضونها في سفرهم عائدين لديارهم، وعاد زعل إليّ في الليلة نفسها بالأخبار المدهشة التي مفادها أنه لا يوجد حقيقة أي شيء من مؤنتنا؛ ففي شهر واحد، بل في الحقيقة أكثر قليلاً من نصف شهر من الترحال والسفر الفعلي، كنا قد بددنا المؤن التي كانت مخصصة لتكفينا أربعة شهور.

لقد باع العريفي وعصابته مخزوننا كله في أسواق خيبر، وتيماء، وتبوك، والبقية الشحيحة منه سُلّمت لزعل لرحلتنا إلى روافة مع الإيحاء بأننا كنا محظوظين للعثور على أي شيء على الإطلاق

لنأخذه. ولكن، حيث إنني كنت سأرى رفاقي الأشرار لآخر مرة غداً، فقد قررت ألا أفعل شيئاً إلا إفادة علي ثروت بالموقف، والذي لم يدهشه إلى حد ما، وكان قد تلقى برقية من خالد السديري، الذي كان الآن على الحدود الشمالية في وادي السرحان مع أخيه عبد العزيز وكان يأمل في العودة إلى تبوك قبل مغادرتي لها، يأمره فيها بتزويدي بجميع ما أطلب من مستودعات مؤن الحكومة.

وفي صباح التاسع عشر استيقظت مبكراً لإعداد كافة متعلقاتي وتجهيزها للانطلاق، ولم أخرج من غرفتي إلا بعد أن أصبح كل شيء جاهزاً، عازماً على أن أبدي وداعاً ودوداً لقوم لا أريد أن أراهم أبداً مرة أخرى، مع تقديم الهدايا النقدية الاعتيادية السخية، بينما كان يتم تحميل اللوري، ولكنه لم يكن ممكناً رؤية اللوري في أي مكان، وكان رفاقي الراحلون يجلسون مطمئنين مرتاحين حول نار القهوة، غير عابئين تماماً باحتجاجي وشكواي من عدم وجود الشاحنة، فهذا لم يعد شغلهم الشاغل الآن لأنه كان هناك آخرون عليهم أن يهتموا بمشاكلي ويجدوا حلاً لها، وقد تركتهم يتذمرون، وغادرتهم دون أي مكافأة أو وداع ودود، ومشيت حتى القرية بحثاً عن السيد وسيارته، التي لمحتها على عجل تتهادي في الشارع الرئيس، وألفيتها أمام أحد الدكاكين الذي كان بداخله السيد يرد بعصبية على مالكه طلباً لبعض المال على حساب المؤن التي اشتراها

من العصابة. وقلت لصاحب الدكان إنه يستطيع أن يعد أي شيء اشتراه من مؤنتي هدية مجانية له، وعندها اضطر السيد البائس أن يأتي معي منكس الرأس يجر ذيول الخيبة والخجل، وينطلق بي عائداً لبيت الضيافة، حيث لم أهدر الوقت سدىً لأشحن متاعي على السيارة. وفي غضون ذلك قمت بمسح نهائي للمنطقة من منبر المصلى المحلي، أي مصلى العيد، لأصحح الاتجاهات التي أخذتها سابقاً من فوق سقف بيت الضيافة الذي كانت خرسانته المسلحة مليئة بالحديد حتى إن بوصلتي المنشورية أظهرت قراءات مختلفة للعلامة الأرضية نفسها تعبر عن أخطاء محيّرة. وكنت على نحو خاص مهتماً بتحديد الاتجاه الصحيح لجبل دِبَّاغ العظيم حاد القمة متحدر الجنبات، الذي يرتفع من سهل تهامة وراء هضبة الخريطة، ويمتد هذا الجبل تقريباً في اتجاه جنوب - جنوب - غرب تماماً.

وانطلقت مع زعل واثنين من رجال الشرطة المحلية البسطاء اللذين كان أحدهما يعطي انطباعاً بأنه يمكن اعتباره دليلاً، في اتجاهنا نحو الغرب - جنوب - غرب مروراً بنخيل تبوك وعبر السهل الكبير، الذي قطعنا فيه خطوط التصريف المتعددة لشعيب المعيصي ووادي البقار، لنصل إلى حافة التلال في المجموعة الشاهقة لصخور المعيقلية الرملية، من هنا صعدنا برفق على المنحدر الشرقي للجبل بخط تصريف ضحل حتى قمة الجبل الأول، ومنه نزلنا في وادي

الغُوَيْل الفسيح. هذا الوادي استمرار لوادي العويند بعد خروجه من منطقة التلال، التي يتدفق من خلالها ويلتقي بشعيب الفُوهَة القصير. وهذا الشعيب يُصرّف مياه المنطقة الواقعة مباشرة غرب جبل الفوهة الأسود الطويل من خلال الممر الذي كنا نتجه إليه. وعلى الرغم من وجود ما لا يقل عن ستة خطوط تصريف تقطع مسارنا في قناة الغويل، إلا أن مسيرنا كان طيباً بدرجة كافية، وسرعان ما وصلنا إلى مدخل ممر الفوهة، الذي يبلغ طوله نصف ميل وعرضه ٢٠٠ ياردة، وبه الكثير من الأعشاب والنباتات النامية في الأرض الرملية العميقة.

كنا قد قطعنا من تبوك إلى الجبل الأول المطل على وادي الغويل حوالي اثني عشر ميلاً بدون حوادث، وبعد أن سرنا تسعة أميال جئنا إلى الممر، حيث غرزنا في الحال في الرمل الكثيف، وانتابني شعور بأن السيد، الذي لا يزال يفكر في الثروة التي ضاعت من يده على غير رضاه، قد أوقف الشاحنة عن عمد على مقربة من تبوك، بيد أن الحالة كانت مناسبة لمتطلباتي تماماً، فبعد أن تركت أصحابي يخرجون الشاحنة من الرمل، سرت مع الدليل لتسلق أعلى نقطة في جبل الفوهة عن يسارنا لمسح المنطقة بشكل عام. لقد كان تسلقاً صعباً وقاسياً نسبياً من حوالي ألف قدم فوق الصخور والحجارة المتكسرة من كتل البازلت، ولكن القمة منحتني نظرة رائعة في جميع

الاتجاهات، على الرغم من أننا لم نتمكن من رؤية نخيل تبوك. وكان ستٌ من قمم عَاجَات تبرز في الأفق من الشمال إلى الشمال - الشرقي، وينتصب منبر النبي صلى الله عليه وسلم بروعةٍ فوق مرتفعات شاحورة ذات اللون الأسمر الفاتح مثل منضدة مهولة تقع خلفها وعلى اليمين منها. وعلى مسافة بعيدة إلى الشمال - الغربي ارتفعت تلال أبي البارد والشقيق والفرعون الصغيرة ولكنها بارزة واضحة تبين معالم مسار دربٍ بديلٍ للسيارات من تبوك لضباء عن طريق وادي مدين.

وعلى الرغم من أن الطريق الأكثر استعمالاً يسير بجوار خط السكة الحديدية نحو الشمال ليبتعد عنه ملتفاً حول آثار قريّة، حيث يتجه نحو الممر عند الطرف الشمالي لجبل مدين على طول مسار وادي الأبيض إلا أن هذا الطريق الثاني، الذي يفضله بعض السائقين، يصل إلى ممر الفوهة وينحرف قليلاً بعدها عن دربنا نحن إلى روافة والخريطة ليدخل الحوض الكبير عند نقع بني مُر حيث يتجه شمالاً ليلتقي بالطريق الآخر في وادي الأبيض. وقدّر لنا أن نرى جزءاً عظيماً من هذه المنطقة بعد فترة وجيزة، مع كثير من العمل المثمر في نقوشها العديدة، وكانت صحراء الحرّة تمتد بعيداً عنا نحو الجنوب مع وضوح رؤية بعضٍ من براكينها العالية في الجنوب - الشرقي، ومنها وتر ونُوف ونويفان وغيرها. وقد تجوّل داوتي على

نطاق واسع في هذه الصحاري المقفرة، وقام موسل برحلة عبر وسطها، ولكنني لم أتمكن أبداً من اجتياز حوافها، على الرغم من أنني قمت فعلاً بدورة كاملة على المنطقة كلها، ملامساً حوافها في نقاط كثيرة لم يرها من سبقوني.

وبتناول الشاي والتبغ لإدخال السرور على أنفسنا، قضيت أنا وزعل ساعة سعيدة على القمة قبل أن ننزل إلى الممر لنجد بقية الجماعة ما زالوا مشغولين في الشاحنة. لقد كانت التربة الرملية مغطاة بكثرة بشجيرات الغضا والرمث في حين كانت أزهار الربيع بادية في الظهور نتيجة السيول الأخيرة، ومنها أزهار بنفسجية صغيرة لنبات يسمى تربة والحمبسيس، وهو نبات متسلق صالح للأكل ويشيع وجوده في كافة المناطق الرملية، وقد انقضت ساعة تقريباً قبل أن تكون الشاحنة مستعدة للتحرك عبر الممر، وفور وصولنا إلى الوادي المفتوح بعده توقفنا بسبب عطل ميكانيكي. وهذه المرة كنت مقتنعاً بأن السيد كان يتمارض أملاً في إجبارنا على العودة إلى تبوك، ولم يكن عندي أي نية في إقرار هذا الرأي وتأييده على الرغم من تنامي إجماع الآراء على أننا سوف نجابه مشاكل ومتاعب بمحاولتنا التقدم للأمام، وقلت لهم إنني مستعد لقضاء الليلة حيثما كنا، وفي تلك الحالة سوف يضطر أحد رفاقنا إلى أن يمشي حتى تبوك لإحضار ميكانيكي كفء ليعالج مشاكلنا، وأردفت

قائلاً (بغير صدق تماماً): إنني لاحظت وجود خيام أعراب أمامنا على بُعد مسافة ما، ومنها، كما قلت لهم: إذا استطعنا أن نصلها قبل حلول الظلام، يمكن أن نرسل رسولاً إلى تبوك على ظهر جمل لطلب المساعدة، وعلى أي حال، كما أوضحت لهم، إذا لم تتمكن الشاحنة من الوصول إلى مخيم الأعراب، فمن باب أولى أنها لن تستطيع أن تصل إلى تبوك، وبالتالي ربما يضطرون لإعداد العشاء أيضاً. وفي غضون ذلك كنت أتجول بين الصخور المجاورة بحثاً عن النقوش، ولكن لم أحقق سوى نجاحٍ متوسطٍ، وسجلت الاتجاهات والتقطت الصور الشمسية، حتى أظهر لأصحابي أنني لست في عجلةٍ من أمري.

وفي النهاية اضطرّ الجبل أن يأتي لمحمد صلى الله عليه وسلم، وبعد فترة راحة حوالي ساعتين ونصف، تم علاج العطل الميكانيكي في الشاحنة بمعجزة، واستأنفنا سيرنا في الوادي بلا انقطاع حوالي عشرين ميلاً حتى مجمع للأمطار، الذي وصلناه قبل الغروب بقليل، لنضرب خيامنا قرب جبل الرضى الذي وجدت على صخوره المتناثرة في الخارج عدداً من النقوش، بينما كانت قمته تبشر ببداية طيبة في الغد بما توفره من نظرة رائعة على المنطقة كلها أمامنا وخلفنا. وفي غضون ذلك، وبعد أن سلكنا طريقاً صغيراً غرب ممر الفوهة كنا قد ابتعدنا عن الطريق الثاني إلى مدين لنصعد إلى أرض

فضاء رملية واسعة، مغطاة بكثافة بالنباتات الصحراوية عقب أمطار الخريف (الوسمي)، ويحدها على كلا الجانبين سلسلة متقطعة، مسننة وغير منتظمة لجبال الزور. وكان هذا الممر لا يزال جزءاً من شبكة تصريف الفوهة التي تمر من خلال وادي الغويل وينحرف مبتعداً عن مسارنا للخارج حتى يصل إلى السكة الحديد بجوار محطة الحزم. وفي مساره كان يلتقي على أحد الجوانب بوادي العويند، الذي ذكرناه من قبل، وعلى الجانب الآخر بشعيب صقاعة الذي يفصل جبلاً شاهقاً يحمل الاسم نفسه عن جبل الفوهة من جنوبه. وكان وادي الزور، كلما ارتفع برفقٍ أمامنا، يتسع بين جبال الجداوية وبرقة عيد عن يميننا ويسارنا على التوالي، إلى أن أصبح مرجاً هائلاً من المراعي المزدهرة الممتدة باتجاه الغرب حتى الحافة البعيدة لهضبة الخريطة وكان جبل الرضى يشكل خطاً فاصلاً بين هذا السهل العظيم والقاع الواسع لأرض مراعٍ طيبة تعرف باسم الزاوية (أي المثلث) بينه وبين حافة منطقة بركانية، ويصل أيضاً إلى الهضبة المجاورة لممر الخريطة.

ولم نجد أي صعوبة في العثور على مأوى مريح لقضاء الليل في رقعة غنية بالنباتات والأعشاب منحرفة عن وادٍ رملي منحدر من الجبل، يسمى شعيب أم صورة. ومرة أخرى رضيت بالعثور على بعض النقوش على نتوءات من الحجر الرملي المتناثرة حولنا، بينما،

في بقعة من الطَّفَال الرملي الناعم قرب مخيمنا، وجدت علامة مثيرة للفضول على الأرض لم أستطع أن أخمن أهميتها. فمن قاعدة غير منتظمة، طولها ٢٤ قدماً، يخرج ثلاثة خطوط من كلا الجانبين ومن الوسط وتلتقي عند رأس مستديرة حيث تنضم إليها دائرة أخرى لتشكل رقم ثمانية باللغة الإنجليزية. وكان الطول من القاعدة للرأس يبلغ ٣٥ قدماً.

ربما يكون هذا الشكل ذا مغزى صوفي غامض، أو قد يكون محاولة من أحد البدو لرسم خريطة تبين القاع المثلث أمامنا، مع روافده المكونة له أو حدوده. ومن الطريف بدرجة كافية أن أحداً لم يعرب عن أي دهشة أو استغراب من عدم مصادفتنا لخيام الأعراب التي رأيتها (كما قلت لهم فعلاً) من قمة الفوهة، ومن عشاءٍ دسم طيب (حيث كنا قد أحضرنا لحماً معنا)، جاءنا السيد سيء الحظ الذي كان حقيقة نادماً بشدة على فشله في تحصيل نصيبه من المسروقات التي اشترك فيها مع رفاقنا السابقين، جاء لتبادل بعض المزاح الودي ليخفف عن خيبة أمله، وحيث إنه أدرك الآن أن الغنيمة من البضائع المسروقة قد ولت إلى غير رجعة، وأن رفاقه المتآمرين من المستبعد أن يعترفوا بحقوق صاحبهم الغائب، فقد بدأ يحوّل جام غضبه مني إليهم، ولم أهدر هذه الفرصة الثمينة في الإعراب عن رأيي في الاستغلال الفاضح للثقة التي كان يوليها لهم

كلهم أمير المدينة. وفي ذات الوقت حذرت مجموعتي الجديدة من تكرار مثل هذه الحوادث خلال ما تبقى من رحلتي، والتي إن حدثت سوف أحمّل زعلاً مسؤولية التأكد من أن المؤن التي سوف نستلمها في تبوك تستخدم بصورة حصرية لاحتياجات البعثة، وعلى الخدمة بأمانة وإخلاص سوف يتوقف منح الهبة أو الجائزة التي سوف أوزعها في النهاية على من يستحق.

وأدرك السيد، على وجه الخصوص، أنه قد ينقذ بعد كل ما جرى شيئاً من آماله القديمة المهدرة، وشيئاً فشيئاً خلال الأيام القليلة التالية باح لي بالقصة الكاملة في محاولة حثيثة لإعادة اكتساب ثقتي وتحسين رأيي فيه. ومن البديهي أن يلقي باللوم على محمد العريفي وإبراهيم ابن عمه، وعلى عبد الله، الذي تخلف عنا في تيماء، متظاهراً بمرافقة الميكانيكي، ولكن في الحقيقة ليجمع المبالغ غير المدفوعة والتي ما زالت مستحقة عن البضائع المسروقة التي تم بيعها، وقد اعترف السيد عن طيب خاطر بتآمره، ولولاه ما كان لهذه المؤامرة أن تنجح، وقال إنه في خيبر، وتيماء، وتبوك قد باعت العصابةُ للتجار المحليين خمسةَ أكياس من الرز، كل كيس منها يساوي ١٤٠ ريالاً، وكيساً واحداً من الدقيق بمبلغ ١٠٠ ريال، وصفيحة واحدة سعة أربعة جالونات من السمن (غي)، وكيساً واحداً من السكر، و ١٥٠ علبة من المربى والفواكه، وعدداً غير

محدد من جوالي الوقود والكيروسين، وبالنسبة لهذا البند الأخير اكتشفوا أن السعر المعروض عليهم في تبوك لم يكن مجزياً بسبب الاختلاس بكثرة من مخزون الحكومة، وقرروا أن يأخذوا ما لدينا معهم للحصول على سعر أفضل في العلا أو تيماء في أثناء رحلة عودتهم. وقد قدرت أن إجمالي عوائد سرقتهم هذه يصل إلى ما بين ٢٠٠ و ٣٠٠ جنيه استرليني. وفي الوقت المناسب بلّغت هذه التفاصيل لعبد الله السديري، الذي لم يصدم كثيراً من تصرف خدمه وأتباعه مثلما كنت أتوقع منه، وكان من الواضح أن هذا سلوك طبيعي لمثل هؤلاء البشر في مثل هذه الظروف، الجميع يعرف ذلك كله.

وكنا هنا على نفس ارتفاع قمة الفوهة تقريباً، ربما ٤٠٠٠ قدم فوق سطح البحر، والمتراس (الجدار) القصير الموضوع على قمة جبل الرضى، الذي زرته في الصباح، كان فوق مخيمنا بحوالي ٣٠٠ قدم. ومنه ألقينا نظرة فاحصة رائعة، ورأينا لأول مرة السلسلة الكاملة لجبال تهامة من قباب وأوتاد شار قرب ضباء باتجاه جنوب – غرب، حتى اللوز والعماليق الشاهقة الأخرى في مدين نفسها نحو الشمال – الغربي. وكانت القمم الأكثر ظهوراً بين القمم القريبة تشمل كلاً من دِبَّاغ (التي رأيناها من قبل في تبوك) وحرب، والتي تقف كحارس على جانبي وادي الصدر الواسع، الذي يتجه إلى

الجانب البعيد من ممر الخريطة ويتسع لدرب سيارات جيد نسبياً حتى البحر وبالتالي حتى ضباء، وصرنا الآن على درب تبوك - الخريطة للسيارات، بيد أن الممر نفسه غير صالح للعربات، وهذا يمثل بالتالي ثغرة قدرها حوالي ميل واحد أو أكثر في الخط المرغوب للاتصالات بين تبوك والساحل، والذي سوف يلغي طريق مدين الفرعي الطويل الملتوي، كما يقلل المسافة من تبوك إلى ضباء بحوالي الثلثين، وقد قام خبراء أمريكان من منظمة النقطة الرابعة (Point Four) ومن منظمات أخرى في مناسبات عديدة بزيارة الممر من كلا الجانبين، بتأييد وتشجيع كامل من خالد السديري لحل مشكلة الثغرة، وهي مسألة بسيطة نسبياً، على أنه حتى الآن حفظت تقاريرهم في وزارة المالية لتوفير الأموال اللازمة لاستخدامات أقل أهمية.

ويقع الممر على بعد حوالي خمسة وعشرين ميلاً جنوب - جنوب - الشرق منا على طول قاعدة حوض حفرة الزاوية الذي تتناثر فيه أقماع بركانية ونتوءات من الحجر الرملي. ومن أكثر العلامات ظهوراً في الحوض وبعيداً عن خط الحرة هي البتراء، وبالقرب منها النقطتان الصغيرتان للرخيمتين بينما كان جبل المكيمن في منتصف المسافة إلى المنخفض، يشكل كتلة هائلة من الحجر الرملي، وقد اشتهر في العصور الماضية بالفوضى القبلية بسبب أنشطة قطّاع الطرق الذين كانوا ينصبون الكمائن في الكهوف

وطيات الجبل لينقضوا على قوافل التجارة المسافرة بين تبوك والساحل. وهناك كتل وجبال أخرى من الحجر الرملي تتناثر في الأفق في كل اتجاه في أشكال رائعة، وسوف نقوم بزيارة بعضاً منها بحثاً عن النقوش في رحلة عودتنا. ويجدر أن نذكر أن ممر الفوهة، الذي كنا لا نزال نراه وراءنا، كان في العهود الغابرة مسرحاً لمعركة شهيرة بين قبيلة بني عطية الشهيرة في موطنها وقبيلة الشرارات المتمردة من الشمال، وقد أوضحَ لي زعل القبورَ التي دفن فيها الموتى في هذه المعركة وتلاً صغيراً آخر يبين الموقع الذي قتل فيه جمل مشهور لإحدى القبيلتين.

وأمامنا كان ممر الخريطة يتصل بمنطقة الحرّة الرئيسة بلسان طويل رفيع من الحمم البركانية يسمى القارة في حين كانت تمتد من الممر باتجاه الشمال سلسلة الجبال الحقيقية من البازلت والجرانيت، وتخترقها على مسافات متقطعة ممرات ضيقة صالحة لسير الإبل وتؤدي إلى سهل تهامة وأوديته.

وقد جاء موسل حتى الهضبة من خلال ممر السِّيق الضيق الصعب، إلى الغرب تماماً تقريباً من الرضى، بينما نجد جبلي الشقرى والشاطي على جانبي فتحته التي يستحيل تقريباً اجتيازها، وقد جاء بيرتون أيضاً من البحر، ووصل إلى ممر الخريطة، على الرغم من أنه لم يستطع أن يتقدم أكثر من ذلك في منطقة بني عطية.

وقد ذكرت من قبل من سبقوني من الأمريكان، ولكن بدون أسماء للأسف بسبب صمتهم عن اكتشافاتهم.

ولم نكد نتقدم ميلين حتى انغرزت الشاحنة بصورة عميقة وحقيقية في الرمال الغائرة للكثبان المنخفضة المتحركة عند رأس منخفض الزاوية، وقد تجولت في المراعي الغنية، التي تنتشر فيها بصورة كثيفة أشجار العرفج في هذه المنطقة المرتفعة، بينما كان رفاقي يعانون في إخراج الشاحنة من الرمال.

وبعد حوالي أربعين دقيقة كنا قد استأنفنا سيرنا مرة أخرى، وقطعنا شوطاً طيباً في المسير نحو جبل المكيمن الذي كان ينتشر في المنطقة المجاورة له عدد ضخم من الأحواض الصخرية ذات الأحجام المختلفة، التي كسحت الرياح الرمل من على سطحها.

وبعد حوالي عشرة أميال وصلنا إلى قمة جبل منخفض ووعر من الحجر الرملي يمثل امتداداً لقاعدة المكيمن باتجاه الشرق، ويشرف على قناتي وادي الأبيضات ووادي رَتَمَة حيث ينحدران من الحرّة ليقطعا سهل المراعي باتجاه الشمال - الغربي نحو ثغرة الشقرى التي يتدفق من خلالها تصريف مياه هذه المنطقة كلها من حدود الحرّة عبر سلسلة الهضاب حتى تهامة، ويتقابل الفرعان قرب جبل العصيا الجرفي، حيث يلتقيان أيضاً بقنوات هامة أخرى من المنطقة

البركانية، حاملة معها المياه المتدفقة من ستة جداول أصغر منها قادمة من منطقة روافة والمنحدر الشرقي لسلسلة الهضاب، وهي ديثان والخور والعلاليق والرويان.

وبعد أن عبرنا فرع أو جداول رَتَمَة بدأنا ننحرف باتجاه الشرق من منطقة الخريطة وتركنا الممر بمسافة ليست ببعيدة إلى الغرب قليلاً من الجنوب.

وصرنا الآن نطأ أرضاً لم تمر بها عجلات سيارات أبداً من قبل، وعند مسافة ما في قناة رَتَمَة في النقطة التي تخرج عندها من الحرّة أشار زعل إلى مكان بئر الخمبارة وهي بئر غير جديرة بالذكر بدرجة كافية ولكن قدر لها أن تكون مسرحاً لكارثة غريبة ومثيرة، حكيت لي في زيارتي الثانية لهذه الأصقاع بعد ذلك بسنتين. فلسببٍ ما كانت مياه هذه البئر قد شحت وضعفت وتطوع رجل من بني عطية ونزل من فوهة البئر ليرى سبب المشكلة، بيد أنه لم يرجع أبداً، وجاء أخوه، عند سماعه النبأ، بسرعة بالغة لإنقاذه، ونزل أيضاً من فوهة البئر ولم يرجع أبداً، وتم استدعاء القبيلة إلى مكان هذه المأساة المزدوجة التي ليس لها من تفسير لتنظر في الأمر، وأصر والد الشابين على النزول ليتأكد من مصير ولديه، وبصعوبة بالغة منعه من النزول رجال قبيلته الذين يؤمنون بالخرافات والخزعبلات، والذين كانوا الآن مقتنعين تماماً بأن نضوب البئر واختفاء الرجلين إنما يعود

ذلك إلى سببٍ ما فوق الطبيعة وقد يكون من التهور بل وحتى من عدم التقوى أن يبحثوا عن ذلك السبب. وقد تم رفع الأمر فوراً إلى خالد السديري، الذي زار الموقع وأمر بردم البئر بالصخور والحصى، وعدم إعادة فتحها أبداً بعد ذلك، وظل اللغز بلا حل، والتفسير الوحيد الذي يحضرني هو أنه ربما أدى بعض النشاط في طبقات الأرض التحتية بهذه المنطقة البركانية التي طال خمودها إلى هبوط الطبقة الحاملة للمياه وامتلاء قاع البئر بغازات سامة من الأسفل. ومن المثير للشفقة أن فرصة البحث العلمي للكارثة قد ضاعت بسبب الخوف أو الرعب، أو ربما من غياب الميل للمعرفة والاطلاع أصلاً.

وفي أثناء سيرنا باتجاه الشرق بين غزارة المراعي الغنية في واد واسع بين الحرّة بحوالي ميل عن يسارنا واللسان الخارجي للحمم البركانية على طول حافة الهضبة، وعلى بعد المسافة نفسها تقريباً، اضطربت الشاحنة وأصدرت صوتا كالسعال وتوقفت مرة أخرى، بيد أننا سرعان ما استأنفا سيرنا متقدمين نحو الأمام مرة أخرى باتجاه المدخلين الرائعين لمنطقة روافة، وهما جبلان شاهقان من الصخور الرملية الحمراء الداكنة، ذات أجراف عمودية شديدة الانحدار تواجه بعضها البعض عبر مضيق اتساعه ١٠٠ ياردة، والذي تمر من خلاله قناة ديشان لتلتقي بشبكة الأبيض المذكورة آنفاً. ولم يكن ذاك

إلا أحد المداخل لروافة، حسبما اكتشفت فيما بعد، ولكنه كان بالتأكيد أكثرها إثارة للإعجاب بألوان صخوره التي لا تقل عن أي شيء في البتراء، على الرغم من أنه من المحتمل أن يكون غياب أي مصدر من مصادر المياه الدائمة هو الذي منع الأنباط من ممارسة عبقريتهم المعمارية على هذه الأجراف والكتل الرائعة.

وقد مررنا عبر مضيق ضيَيْقات الفَهْديَة الذي يبلغ طوله مئات قليلة فقط من الياردات، إلى واد واسع وفير النباتات يسمى شعيب ديثان الذي ينحدر من بين جبال الحمم البركانية التي تكسو قواعد الصخور الرملية متعددة الألوان، وقد انغرزت الشاحنة مرة أخرى في الرمل الغائر، وفي لحظات تزداد فيها لهفتي كلما اقتربنا من هدفنا، ومشيت أعلى الوادي مع زعل، الذي بدا الآن غامضاً بعض الشيء في تحديد الموقع الدقيق للمعبد.

لقد مشينا معاً لساعة ونصف الساعة، قطعنا خلالها ما يقرب من ثلاثة أميال في أرض وعرة من الرمل والشجيرات (الروثة والرتم التي أعرفها جيداً في البتراء)، عندما أدركتنا الشاحنة. وبحلول هذا الوقت استدرنا لليمين في أرض فسيحة وسط الجبل على تلك الناحية، وسرعان ما كنا في وادي شعيب الهواتف الموازي له، والذي سرنا فيه حتى اعترف زعل بأنه لم يعد يعرف الاتجاهات. والآن استدرنا لننزل في الوادي مرة أخرى، ولم يمض وقت طويل

حتى رأينا المبنى الذي جئنا لزيارته، وكان ظله يمتد على كتلة كبيرة من الحجر الرملي الأصفر قائمة على قاعدة محمرّة اللون قليلاً. لقد وصلنا إلى روافة ليس بدون متاعب تماماً، ويمتد أمامنا احتمال الإقامة المؤقتة لأجل غير مسمى تقريباً.

لقد كان من الواضح الآن أن الشاحنة في حالة سيئة، وكان أسفي الوحيد ينبع من أنني مجبر على التضحية ببطارية المذياع حتى نصل إلى هدفنا، لأن جهود السيد لتعطيل السيارة وإيقافها عن عمد وأعماله الشاقة بعد ذلك لإخراجها من الحفر التي حفرها لي قد أدتً في النهاية إلى احتراق المولّد الكهربائي تماماً مثلما حدث لنا في مضيق ضييقات الفهدية، وإلى هذه النقطة كنا قد قطعنا حوالي ثمانية وثلاثين ميلاً منذ انطلاقنا من مخيمنا بجوار جبل الرضى ومن هناك حتى المعبد لابد أننا قد مشينا وسرنا بالسيارة ستة أو سبعة أميال على الأقل، على الرغم من أن المسافة الحقيقية قد لا تكون أكثر من أربعة أميال. وهكذا، فالمسافة بين تبوك وروافة على خط سيرنا تبلغ ثلاثة وثمانين ميلاً تقريباً.

ولم نصل إلا في وقت متأخر من الأصيل حتى إننا لم نستطع القيام بأكثر من فحص سريع ومتعجل للآثار، قبل أن نستقر في المخيم لننظر في مختلف المشاكل العملية التي تواجهنا. لقد كان زعل ورفيقاه الاثنان -بصورة عامة- متعاونين ومقنعين كأدلاء، بيد

أنه كـان من الواضح أنهـمـا لا يرتقـيـان إلى المسـتـوى المطلوب لاستكشاف هذه البقعة المثيرة كثيراً للاهتمام، من الحجر الرملي والحمم البركانية المتشابكة، والتي تشكل انتقالاً من المنطقة البركانية في الجنوب حرّة الرحى إلى حسمى الصافية في الشمال.

هذه المشكلة حلت نفسها ببساطة كافية عند وصول بعض الرعاة المحليين، يحدوهم نحونا مشهد ورائحة عشائنا عن قريب، وسرعان ما اتفقت معهم على خدمات أحدهم وهو سعيد بن سلامة من بني عطية، والذي كان معسكره في المنطقة المجاورة لنا. وقد ثبت أن معرفته بالبقعة من الحرة باتجاه الغرب حتى الهضبة كانت مرضية بدرجة كافية، على الرغم من أنه فيما وراء الأخيرة كانت معرفته بتهامة منعدمة تقريباً، وقد برر ذلك -حسب ما قال لي- بأنها ليست منطقة بني عطية، وبالتالي ليست ذات بال أو أهمية !! ولقد قدر لي أن أكتشف كثيراً من الأهمية لها بعد ذلك في المنطقة التي يتقاسمها بلي (أو بالي) والحويطات.

كما كان سعيد أيضاً يعيبه نسبياً عدم قدرته على تمييز قمم الحرّة الأشد بعداً. لقد رأى البقر الوحشي في وادي الأبيض قبل عامين (١٩٤٩) ولكنه فشل في اقتناص ولو واحدة فقط منها، ويبدو أن هذه كانت آخر رؤية معروفة لهذا الحيوان في شمال الجزيرة العربية. وكان همنا الثاني أن نبلّغ موقفنا للسلطات في تبوك، وبحلول وقت العشاء

في يومنا الثاني كان سعيد قد قدّم لنا أحد أفراد قبيلته ومعه ذلول، لينطلق مبكراً في الصباح التالي ومعه خطاب إلى علي ثروت، طلبت منه فيه أن يرسل لنا شاحنة أخرى وبطارية، وحيث إنه سيمضي وقت حتى أتوقع وصول إغاثة، فقد عزمنا على الاستقرار خلال هذه المدة ونصب خيامنا للوقاية من الطقس؛ لقد كان من الواضح أن الجو هنا أبرد مما هو في منطقة تبوك، حيث كانت درجات الحرارة الدنيا وفي الصباح تبلغ نقطة التجمد وأحياناً تنخفض عنها كثيراً، وكان الحد الأدنى لدرجة الحرارة في ليلتنا الأولى قد وصل إلى ٢٥٫٥ درجة فهرنهايت، والماء في قربنا وصفائحنا قد تجمد بقسوة، بينما كانت الأرض مغطاة بطبقة كثيفة من الصقيع الأشهب حتى طلعت الشمس وبددّتها، وحدث الشيء نفسه في الليلة التالية، وبعد فترة وجيزة من الليل الأدفأ قليلاً (درجة أو درجتين فوق نقطة التجمد) لم يسجل مقياس الحرارة معي (ثرمومتر) إلا ٢٠٫٥ درجة فهرنهايت في آخر ليلة لنا في روافة (٢٥ يناير).

إن سبب وجود المعبد في هذه البقعة من الواضح أنه يعود لوجود -على بعد مئات قليلة من الياردات- ينبوع مياه (مشاش) في كهف صغير يتدلى فوقه نتوء ضخم من الجناح الصخري في الجهة اليمنى لوادي هواتف الذي يصبح اسمه الخور بعد مسافة للأسفل ويلتقي بوادي الديثان بعد خروج هذا الأخير من مضيق ضييقات، وهو في

طريقه للالتحاق بشبكة أودية الأبيض ويمتد هذا النتوء كثيراً جداً للخارج حتى إن داخل الكهف لا يرى الشمس إلا مدة وجيزة في حوالي منتصف الصيف، وعند ذلك تجف البرك الخارجة من النبع على الأرض الرملية في الكهف، وفي جميع الأوقات الأخرى يقال إن إمداد المياه دائم لا ينقطع، وكان هناك الكثير من البراهين على أهميتها وقيمتها للرعاة العرب الذين لا يتجشمون أي عناء في المحافظة على المكان نظيفاً.

إن البرك نفسها قذرة ويطفو على سطحها الروث ومادة رغوية ضمن مواد أخرى، بيد أن الماء عذب وصالح للشرب، وعلى وجه الشرفة الخارجية الفارغة العالية قرب قبة الصخر كان يوجد نقش ثمودي طويل نسبياً والذي نجحت في استنساخه بالاستعانة بمنظاري حيث إن الشرفة نفسها كان الوصولُ إليها غير ممكنٍ على ما يبدو. وهذه البرك كانت مغطاة بطبقة رقيقة من الثلج خلال الليالي الباردة. إن البدو بالتأكيد يعلمون الكثير عن مصادر المياه الأخرى في تجاويف الحرة النائية (مثل بئر الخمبارة على سبيل المثال)، بيد أن ينبوع المشاش كان الوحيد الذي يسهل الوصول إليه للرحلات والنزهة الخلوية أو لجماعات الصيد والقنص من عليّة القوم قديماً في تبوك، الذين كانوا -بلا ريب- يعيشون في الخيام خلال نزهاتهم الخلوية في الربيع.

لقد تأثر هؤلاء القوم، على كل حال، بدرجة كافية بسحر المكان حتى إنهم أقاموا علامات تذكارية دائمة لزياراتهم في مبنى لا يزال اسمه وغرضه باقيين، وذلك بالصدفة الحسنة بوجود بعض النقوش الإغريقية والنبطية التي اكتشفت حتى الآن بين الأنقاض. ولم يكن هناك من شك في أن هذا المبنى كان معبداً حيث يوجد نقش يوناني قصير يشير إلى بناء هذا المعبد في أرض "روباثوي" Robathoi وهي ترجمة حرفية تقريباً لكلمة روافة؛ فالحرف اليوناني باء (b) يقابله الفاء الثقيلة (V واو، W، بالعربية)، ولذلك قيمة صوتية بينما التقابل بين الفا (f) والثاء (th) والذي قد طعن فيه البعض يبدو مؤكداً من الحقيقة المجردة أن اسمي يكتب وينطق بالثاء بين أصدقائي شبه الأميين في الجزيرة العربية.

وتوحي حالة المبنى المتهدم جزئياً بأنه ربما كان ضحية لزلزال، لا يذكره أحد في التراث المحلي، بينما يظل معظم المبنى في حالة طيبة من المحافظة والصيانة، وتاريخ إنشائه مؤكد تقريباً بنقشٍ رائع بلغتين (يونانية ونبطية)، وهو يشكل على ما يبدو جزءاً من إفريز واجهة المعبد، وقد اكتشفه ألويس موسل عام ١٩١٠م. ولم أجابه أي صعوبة في العثور عليه بين الأنقاض المتراكمة، وقمت -طبعاً- باستنساخه بحرصٍ شديد، علاوة على أنني أخذت نسخاً له، لأن النسخة التي كتبها موسل يبدو أنها اختفت في أثناء ما تعرض له من

معاملة فظة في معسكر بني عطية، التي أشرنا إليها آنفاً. ويذكر النص أسماء ماركوس آورليوس أنطونيوس ولوكيوس فيروس على أنهما هما الأميران اللذان بُني المعبد على شرفهما وأهدي لهما. وكان الأول قد خلف أنطونيوس بيوس على عرش الإمبراطورية الرومانية في عام ١٦١م، في حين تقاسم الأخير المقام السامي مع كل من أغسطس وبرنسبس من السنة نفسها.

وقد مات لوكيوس فيروس بعد ذلك بثمانية أعوام وهو في طريق عودته إلى روما من حملة إلى بلدان الدانوب، حيث كان هو القائد الروماني في سوريا عام ١٦٢م لصد الغزو البارثي (Pharthian) في ذلك العهد. وكان انتصار الفيالق الرومانية قد أكسبه لقب "بارثيكوس ماكسيموس"، ولا بد من أنه في هذا الوقت قد بلغت شهرته أوجها في الشرق الأوسط، وفي ذلك الوقت كانت مملكة الأنباط القديمة من مقاطعات الإمبراطورية الرومانية لما يزيد عن خمسين عاماً، ويبدو أن رعايا الإمبراطور من الأنباط وحاشيته قد احتفلوا بالانتصار على البارثيين (Parthian)، هذا النصر الذي يهم شعب سوريا مثلما يهم حكامه الرومانيين، بإنشاء هذا المعبد للديانة الإمبراطورية في عام ١٦٥ ميلادي أو قريباً من ذلك. وقد ناقشنا من قبل نقشاً ثانياً باللغة اليونانية، كما أن هناك نقشاً ثالثاً باللغة النبطية ولكنه أقل أهمية وإفادة، ونقشاً رابعاً باللغة اليونانية يذكر كلاديوس

مودستوس الذي عرّفه السيد / هنري سيرج من المعهد الفرنسي في بيروت بأنه الجنرال الروماني الذي حكم مقاطعة الجزيرة العربية من مقر قيادته في بصرى بجبل الدروز. ولا بد أن هناك الكثير من النصوص يمكن اكتشافها بين الأنقاض المتناثرة للمعبد، ولكننا لا نملك الوقت ولا العمال المختصين لتحريك وقلب ما ليس بالقليل من قطع الصخور الثقيلة المترامية بالموقع.

ويتكون المعبد من مربع ضلعه ثلاثون قدماً، وجداره الغربي يبدو سليماً وبه خمسة عشر مدماكاً من البناء المشذب تشذيباً حسناً، والمشيّد بدون أي نوعٍ من الملاط أو الإسمنت، ونصف الجدار الشمالي المرتبط بالجدار السابق سليم أيضاً بنفس الارتفاع، بيد أن باقي الجدار الخارجي في جهتين ونصف جهة في أوضاع متفاوتة من الانهيار والدمار، ولا يبدو منه إلا مداميك قليلة تظهر هنا وهناك، حيث قام البدو بانتزاع أحجار البناء لتزيين وزخرفة القبور الحديثة نسبياً في المقبرة المجاورة.

وعلى مسافة ليست ببعيدة إلى الشمال تظهر بوضوح قواعد مبنى أصغر منه، ربما أكثر حداثة من المعبد نفسه وربما شيد بمواد مأخوذة منه أيضاً، ولكن لم يبقَ أي شيء من جدرانه إن كانت له أيّ جدران، وأعتقد أن هذا السور الحجري ربما كان ذات يوم خزاناً لحفظ مياه السيول، وقد كان مملوءاً بالرمل والطين. وكانت مقاساته

حوالي ١٥ × ١٢ قدماً. وكل هذه الأحجار في البناء قد جلبت من محجر للصخور الرملية خلف الأجراف التي تطوق كهف مشاش في حين وجدت هنا وهناك في وادي الهواتف الواسع آثار للزراعة، حيث توجد رقع واسعة نسبياً معدة لزراعة محاصيل القمح والشعير اعتماداً على السيول الناتجة من أمطار الخريف أو ما بعده. وكانت الأسوار الضئيلة من الشجيرات تحيط بهذه الأحواض الزراعية بل كانت أيضاً بمثابة حواجز مؤقتة لتأخير مرور مياه السيول.

وكان اتجاه المعبد تقريباً شرق - غرب وله مدخل واحد يتجه قليلاً للجنوب من الشرق (١٠٤ درجات)، بينما كان الجداران الشرقي والغربي يتجهان ١٧ درجة للشرق من الشمال حتى ١٧ درجة غرباً من الجنوب، ويبلغ سمك الجدران الباقية ٧٨ سنتمتراً، وتشكل خطاً خارجياً من الطوب المشذب تشذيباً تاماً في الخارج وغير مشذب على الإطلاق في الداخل، ويلتقي في أحد جانبيه بجدار داخلي من أحجار غير مشذبة من أحجام مختلفة. وهناك شق على طول الجدار الغربي كله وهو سليم فيما عدا ذلك مما يؤيد بالتأكيد فكرة الدمار الذي سببه الزلزال، على الرغم من أنه يحتمل أيضاً أن يكون هذا الانهيار قد نشأ من جراء فيضان كامل غير عادي خاصة وأن المبنى يقع عند حافة وادٍ منبسط بشكلٍ أو بآخر. وفي الركن الشمالي - الغربي من المبنى تقع غرفة ذات شكلٍ غير منسق تبلغ

أبعادها ١٤ × ٥ر١٢ قدماً ونصف القدم تقريباً ويحيط بها من الخارج الجزء المتبقي من الجدار الشمالي والقسم المجاور له من الجدار الغربي. والجدران الأخرى مهدمة تماماً وكل ما بدا مؤكداً هو أن أرضية الغرفة كانت ترتفع بحوالي أربعة أقدام عن مستوى الأرض في فناء المعبد. وكانت حجارة البناء المتهدمة قد حولت الغرفة إلى كتلة صلدة من الركام والأنقاض، وكان من المستحيل معرفة أو جس ما بداخلها.

وقد اعتقد أنه من الممكن، في الحقيقة، أن تكون قد استخدمت في العصور الحديثة كقبر، مع وضع الأحجار الثقيلة فوقه لمنع الضباع أو البشر من انتهاك حرمته. ويبلغ طول الجزء السليم من الجدار الشمالي ٥ر١٢ قدماً ونصف القدم، وبعد ذلك يمتد خمسة أقدام أخرى في حالة متهدمة. وعلى الجانب المقابل كان الجدار الجنوبي مهدماً حوالي عشرة أقدام من عند التقائه بالجدار الغربي، وبعد ذلك لا يمكن تمييزه في وسط امتداد الأنقاض. ويوجد مدخل المعبد، على الجهة الشرقية، ويحفه على الجانبين الشمالي والجنوبي ثلاثة أو أربعة مداميك على التوالي من الأحجار الضخمة، والمشذبة تشذيباً جيد جداً.

أما الركن الجنوبي - الغربي من الداخل فيبدو أيضاً أنه كان به غرفة في المستوى نفسه لتلك التي وُجدت في الزاوية الشمالية -

الغربية، على الرغم من أنه لا يوجد منها إلا الأساسات كدليل على وجودها.

كذلك لم يبق أي دليل على وجود سقف فوق هاتين الغرفتين، ولكن يبدو أنه عند دخول المحراب من مدخله الشرقي، فإن المصلين المحتملين الذين يعبدون قيصر سوف يجدون أنفسهم في ساحة فناء مفتوح، أمام منصة تشغل النصف الغربي من المعبد، وتنقسم إلى قسمين اثنين، تفصل بينهما مساحة ضيقة، وربما كان كل قسم منهما مخصصاً لأحد الزوجين الإمبراطوريين المقدسين، وكان ارتفاع الجدار الغربي السليم يبلغ ٣٨٢ سنتيمتراً، ويقوم على قاعدة مربعة طبيعية من الحجر الرملي سمكها ١٢ سنتيمتراً، والتي تبرز بخطوات قليلة من البناء في الجهة الشمالية.

وربما تكون محاور الشرق والغرب من المبنى أطول بأقدام قليلة عن جهتيه الشمالية والجنوبية، وهذا ما يعطي شكلاً مستطيلاً بدلاً من مربع حقيقي كامل التربيع. وبين الأنقاض المتهدمة رأيت قاعدة عمود مربعة (ربما كان الهدف منها أن تكون تاجاً للعمود) وبها ثقب في وسطها قطره ٥ر٣٢ سنتيمتراً ونصف السنتيمتر يخترقها من أعلاها إلى أسفلها في مربع داخلي غائر نحو ٥ر٤٧ سنتيمتراً ونصف السنتيمتر. وكانت أبعاد الكتلة الحجرية كلها ٧٨ سنتيمتراً مربعاً وعمقها ٢٠ سنتيمتراً. ولم أر أي دليل على وجود أي أعمدة

مستديرة في كتلة الأنقاض. والمبنى الثاني المذكور سابقاً يقع على بعد حوالي خمسين ياردة للشمال - الشمال - الشرقي من المعبد، ويتجه نحو الشرق بقدر كبير على الخطوط نفسها، وربما كان مسكناً للقيّم أو الكاهن، وقد وقع سقفه في الداخل وكان مغطى بالرمل.

إن حافة الحجر الرملي للضفة اليمنى من وادي الهواتف في المنطقة المجاورة مباشرة للمعبد تغطيها طبقة رقيقة نسبياً من تدفق الحمم البركانية، ومنها تعرف باسم سود روافة. ولقد وفرت لي بكل تأكيد نقطة طيبة لإلقاء نظرة عامة عندما صعدت عليها بعد يوم أو يومين من وصولنا، وتتوج قمتها أنقاض حصن عربي من العصور الوسطى أو الحديثة، مشيد من صخور الحمم البركانية المتوافرة محلياً وغير المشذبة.

ويقع المعبد إلى الأسفل منها نحو الجنوب قليلاً من الشرق، والمشاش عن يمينه قليلاً، وتمتعنا بإلقاء نظرة طيبة على وادي الهواتف ينحدر بين ضفتيه المغطاتين بطبقة الحمم البركانية من مستجمع الأمطار في أحد أجمل الصخور الوردية التي رأيتها على الإطلاق، والأخيرة هذه تعرف باسم الخرينات وتقع إلى الشرق تماماً تقريباً على الجانب القريب من كتلة الجبال والقمم البركانية، والتي تشق خلالها المياه المنصرفة من الجانب البعيد طريقها بقنوات ضيقة متجعدة تشكل رأس وادي دَامَة الذي يشق طريقه إلى البحر عند

مسافة معينة إلى الجنوب من ضباء. وتضم الضفة البعيدة لهذه القنوات الضيقة جبلي الخرارة والحجالة البركانية وبينهما يسير درب وعر للإبل وسط منطقة بركانية حتى رأس وادي قنا إلى أن يصل في النهاية إلى تبوك. وكانت الصخور الرملية في جبل الخريطة محاطة من جميع الجوانب بالكثير من الحمم البركانية المنتشرة، والتي تمتد تماماً على طول الجانب البعيد من وادي الهواتف حتى تلتحم بجبل اللوى الكبير، وهو جبل من الحمم البركانية التي تجثم على قواعد من الصخور الرملية الحمراء لكلٍ من أبو عتبة والعلاليق والعشارية وأبو طفيف، وبين كل زوج منها ينزل وادٍ صغير شديد الانحدار إلى قناة الخور وهي امتداد لوادي الهواتف.

وتدخل عدة شعاب صغيرة هذا الوادي بعد النقطة التي يعرف عندها باسم الخور في حين يمتلئ القوس كله الممتد من الشمال - الشرقي ودائرياً من الجنوب إلى الجنوب - الغربي بجبل اللوى الأسود الشاهق، ويوجد فيه ممر للإبل متجه إلى تهامة للغرب قليلاً من الجنوب، وكانت صخوره الرملية ذات اللون الوردي في قاعدته العالية تلمع في تضارب صارخ مع الحمم البركانية السوداء الكئيبة في منحدراته العليا وقمته المستوية. كما إن حافته الشمالية والأطراف الجنوبية لمرتفعات السلاعو البازلتية تشكل قمماً عريضة تؤدي إلى رأس وادي سليسية الذي يهبط بانحدار فوق حافة الهضبة

إلى تهامة، حيث يلتقي بقناة وادي خريطة الرويان وهو في طريقه إلى البحر كرافد من وادي دامة. إن جبل السلاعو هو أبعد وحدة في أقصى الجنوب من سلسلة هضاب طويلة تمتد حتى تلتقي بجبال مدين. وتقع ضيقات الفهدية تقريباً إلى الشمال - الغربي منا وعلى مسافة غير بعيدة، ووراءها بمسافة طويلة تمتد قمم حرب ودباغ وشار الشاهقة على حسب هذا الترتيب من اليمين لليسار، وكانت قناة ديثان التي جئنا منها عند وصولنا لأول مرة والتي تمتد الآن تحتنا على الجهة البعيدة من جبل سود روافة، تعرف باسم الحنة في أطرافها العليا، التي تهبط من جبلي الحمم البركانية الشاهقين "أم عوال والقبل".

وفي اليوم التالي (٢٣ يناير) عزمت على أن أستكشف المنطقة من قمة جبل اللوى حيث تم إحضار الحمير من مخيم سعيد، وتقدمنا، أنا وهو مع زعل ورجل آخر من بني عطية يدعى عودة، ونزلنا في وادي الهواتف، وبعد نصف ساعة وصلنا إلى مرتفع من الصخر الرملي يسمى هضيبة البيضة وكان على مقربة منها بعض القبور الحديثة وآثار واضحة للزراعة الموسمية، بينما في وسط القناة عثرنا على حافة مبطّنة بالحجارة لسياج بحوالي ٢٥ ياردة مربعة، ربما إنه يحيط بخزان مياه مدفون، ولم يكن رفاقي قادرين على تنويري بشأن هذا الموضوع. لقد كان نوعاً من العمل الذي لم يعهده البدو

المعاصرون، وبالتالي من المؤكد أنه يعود إلى بني هلال. وربما كان أثراً باقياً من استيطان الأنباط في المنطقة. واستغرق الأمر منا أكثر من نصف ساعة أخرى حتى وصلنا إلى سفح جبل اللوى، أي تقريباً مسافة حوالي أربعة أميال من مخيمنا لأن مطايانا لم تكن من سلالة السباق تماماً، وكانت تتصرف كما لو كانت تود أن تذهب إلى أي مكان آخر غير النقطة التي نود رؤيتها، وهنا كانت قاعدة الجبل من الصخر الرملي الرمادي الأبيض قليلاً، وكنا في الصعود، على الرغم من أنه كان وعراً في بعض الأجزاء، لم نجابه أي صعوبة تذكر. وقد استغرقنا قرابة أربعين دقيقة للوصول إلى نصب تذكاري على قمة الجبل، ربما بارتفاع ٧٠٠ أو ٨٠٠ قدم فوق الوادي. وقد سرنا على أقدامنا بالطبع، وتركنا الحمير مربوطة في حبال طويلة لترعى وحدها بدون رعاية في القاع.

لقد كانت القمة كلها، حتى عمق مئتي قدم، من الحمم البركانية الصلبة، والمتناثرة في أكوام من الحجارة على كلا الجانبين، والضباب الخفيف فوق منخفضات تهامة تحتنا لم يحرمنا كثيراً من التمتع بالمنظر العام الممتد من قمم رَيْدان وراء وادي دامة في الجنوب تماماً حتى قمة الشواطئ التي تشبه منقار الببغاء في الشمال - الغربي. ولم نتمكن من رؤية البحر، بيد أن السهل الساحلي خلف الجبال كان واضحاً بقليل من الضباب. ويقع معبد روافة في اتجاه

شمال - شمال - شرق منا على بعد حوالي أربعة أو خمسة أميال، في حين كانت قمة "الخرينات "Al Khurainat" ذات الصخور الرملية الوردية في الشرق تماماً تقريباً، وممر الحجلة من خلفهما، وكان مضيق ضييقات في الشمال - الغربي، بينما على مسافة غير بعيدة منا إلى الجنوب - الجنوب - الغربي كان يقع الممر، المذكور آنفاً، عند رأس وادي سليسية، الذي يمكن أن نرى الآن قناته ذات اللون الداكن الكئيب وهي تغوص في الأعماق السفلى.

ولدى العرب رعب من هذا الأخدود عندما يحضرون إبلهم إلى المراعي الصيفية في الهضبة أو عندما يأخذونها إلى المنخفضات في تهامة خلال الشتاء، ولكنه لا يمثل أي صعوبة، كما يقولون، للمشاة العابرين، إنه معروف لديهم باللقب اللطيف الممر طيب الاسم "طلعة طيب الاسم"، وهذا مما جرت عليه عادة العرب في إطلاق أسماء لطيفة على الأماكن البغيضة. وفي كافة تلك الحالات يقال إن هذا اللقب اللطيف يعمل على إخفاء اسم حقيقي ولكنه لا يصح ذكره، بيد أنني لم أستطع في أي من تلك الحالات أبداً، على قدر ما أتذكر، أن أكتشف الاسم الحقيقي.

وفي الواقع ربما نسبه العرب المعاصرون أو إنهم لم يعرفوه أصلاً. وقد لاحظت أيضاً أن هؤلاء القوم من بني عطية ينطقون حرف السين بلثغة مثل ما في "ثليثل" بدلاً من "السليسل"

و"الثلوعة" بدلاً من "السلوعة" . . . إلخ. وأمام جبل اللوى مباشرة، إلى الجنوب والجنوب - الغربي، تمتد كتلة كبيرة من الأرض المرتفعة ذات الصخور الرملية المتهدمة، تسمى الوهيثة وتقع بئر اللوى (على بعد ستة أميال تقريباً) في المضيق الذي يصل بين القمتين. وكان جبل اللوى نفسه يمثل قوساً مجوفاً أحد قرنيه يتجه قليلاً للشرق من الجنوب والتالي للغرب - جنوب - غرب، وكان باتساع حوالي ٥٠٠ ياردة في وسطه على خط منشآتنا الحجرية، ولكنه ينبعج على كلا جانبيها. وهناك أخيراً معلم آخر جدير بالذكر هنا، لأنه قد قدّر لي أن أصبح على دراية أكثر به بعد ذلك بعامين، وهو جبل سُويون " بثدييه " المستديرين الكبيرين المتاخمين للضفة اليمنى لوادي سَدْر، وعند نزولنا من القمة، ركبنا إلى كتلة عظيمة من الحجر الرملي بجانب قناة أم العلالق الفيضية، التي قدمت لنا ما كنا نرجوه من محصول وفير من النقوش الثمودية، مثلما فعلت أيضاً بروزات أم القويرف ذات الصخور الرملية التي تحاذي نفس المجرى المائي.

وبحلول هذا الوقت كنت قد جمعت ما يكفي في هذا اليوم حتى السأم، وسرنا ببطء وتثاقل عائدين -ونحن مرهقون- على حميرنا ذات الخطو غير المتوازن. لقد كان من الأكثر راحة لنا أن نمشي على الأقدام، ولكنَّ زوجاً جديداً من الأحذية غير المناسبة اشتريته من

تبوك قد كشط قدمي بصورة سيئة نسبياً، وظننت أنه من الأفضل أن أدع الحمار يحملني. والسحب الكثيفة التي كانت تجعل السماء معتمة في الصباح، بعد ليلة من الرياح الرعدية الخفيفة، قد انقشعت خلال الصباح وتمتعنا بشمس مشرقة ساطعة ونسيم خفيف طوال مدة خروجنا كلها.

وبعد ليلة أخرى من الريح العاصفة الخفيفة، ومع هبوط درجة الحرارة إلى نقطة التجمد أو أقل منها بقليل، كنا قد وصلنا إلى آخر يوم كامل لنا في منطقة روافة. وقد جاء لوري من طراز شيفروليه في الصباح الباكر من تبوك محملاً بقطع الغيار الضرورية للشاحنة من طراز فورد، وعدد من رجال الأمير لمساعدتنا في الخروج من أي مشكلة قد تعترض طريقنا. وهكذا، بعد أن تركت الجماعة وهم يصلحون الشاحنة الفورد، استخدمت اللوري لزيارة أخيرة إلى نقطة في وادي ديثان، قيل إن بها آثاراً، وكان يرافقني زعل، وسعيد، وعودة، وفي خلال عشر دقائق وصلنا إلى صخور هضيبة المبرة الرملية عند الطرف الجنوبي من الأرض الفضاء المنبسطة التي دخلنا منها أول مرة في وادي الهواتف، وعند خروجنا من تلك الأرض الفضاء في الطرف الآخر والتفافنا إلى اليمين، عبرنا شعيب الحنو وشعيب مشاش بالتالي وكلاهما رافد من روافد قناة ديثان المنحدرة من بعض المرتفعات التي تدعى أم بطمة لنصل إلى سفح

جبل أم القرون الذي يأخذ شكل أقماع من الصخور البركانية. وعلى منحدر هذه الأقماع وجدنا آثاراً باقية من مستوطنة عربية مهجورة، ربما تكون من العصور الوسطى، أو هي بالأحرى خط من التحصينات، مشيدة من ألواح البازلت المسطحة المكدسة فوق بعضها البعض بلا ملاط. وقد فعل الزمن والطقس فعلتهما في تدميرها، ولم نجد أي شيء قائم أكثر من ارتفاع ثلاثة أقدام. وكانت بعض المباني دائرية وكان يبدو من المرجح، أنها قد شيدت لتكون سلسلة من المتاريس لمنع دخول أي عدو إلى منطقة روافة خاصة وأن الموقع يشرف على ممر يؤدي إلى رأس وادي ديثان. من هنا صعدنا إلى قمة اثنين من الأقماع الأدنى ارتفاعاً لرؤية المنطقة، وأشار أدلائي إلى سلسلة جبال من الصخور الرملية بارزة مسننة القمم تسمى العمدان عند حافة الهضبة، وهي لم نرها من قبل.

ولم يخطر ببالي إلا قليلاً أنني بعد ذلك بسنتين سيقدر لي أن أخيم تقريباً عند سفحها في المنطقة المجاورة لمستوطنة نبطية ظلت مجهولة حتى اليوم، وكانت صخور الخرينات الوردية الآن باتجاه الجنوب منا، في حين كان جبل دباغ في الغرب تماماً، وجبل حرب عن يمينها وأوتاد جبل شار عن يسارها، وباتجاه الشرق كنا نستطيع رؤيةَ رأسي كتلة جبال الهويدي الذي يقعُ عند سفحه بئرُ المياه وحدائقُ نخيل بالاسم نفسه، وعبرنا مدخل وادي تمر الذي يتدفق

من اليسار إلى اليمين، ليصبح القناة الرئيسة لوادي دامة. أما باقي المشهد فقد كان بقدر كبير هو ما شاهدته نفسه في نقاط أخرى، وأسرعنا عائدين بعد ذلك حتى أتمكن من قضاء آخر فترة لما بعد الظهر لي في المنطقة لإكمال استنساخ نقوش المعبد، ثم أستعد للرحيل في الصباح. والحدث الوحيد الذي وقع في ذلك الأصيل كان وصول جيش جرار من الجراد آتياً من تهامة وانتشر فوق المراعي الغنية في الهضبة.

وفي غضون ذلك، وخلال مرحلة باكرة جداً من بقائنا في منطقة روافة، كنت قد وضعت علامات على منطقة الصخور الوردية في الخرينات بصفتها بقعة جميلة يجب استكشافها، مع فرصة مواتية للعثور هناك على بعض السجلات لزائرين نبطيين وثموديين قدماء. وفي الأصيل نفسه الذي جئنا فيه قمت بجولة على الأقدام لفحص مجموعات قليلة من الصخور الرملية على كلا جانبي وادي الهواتف الذي يقع رأسه إلى الشرق في جبل أم عول وهو جبل بازلتي يشرف على الخرينات.

وكانت إحدى هذه المجموعات تدعى البخترية على الضفة اليسرى، وهي كتلة عظيمة من الصخور الرملية الحمراء تعلوها طبقة سميكة من الحجارة الرملية البيضاء، ومنها تمتعنا بإلقاء نظرة طيبة على فوهتي وتر وشيبان في المنطقة البركانية إلى الشرق. والنقطة

الثانية التي زرناها كانت نتوءاً معزولاً من الحجر الرملي في الوادي تسمى ديرة الهاتف، والتي وجدت عليها بعض النقوش التي تآكلت بصورة سيئة، والبئران الجافتان، هما من أبيار هاتف تقعان على بعد حوالي ٣٠٠ ياردة منها. وبين الاثنتين وجدنا ما بدا أنه كان أساسات لمبنى مشيّد من الحجر الرملي المشذب بصورة مهملة، على الرغم من أنها ربما كانت على الأرجح حافة خزان مياه ملئ الآن بالرمل والطمي. وعلى مقربة، كان لرأس جرف الهاتف صخرة معلقة رائعة تغطي كهفاً عند مستوى الأرض، والذي لابد من أنه قد وفر ملاذاً من الشمس لأجيال من الثموديين والرعاة المعاصرين لعهد قريب. وبارتفاع يبلغ عشرين قدماً عن مستوى الأرض، كان جدار الكهف يرتد ليشكل صالة عرض مزينة بكثير من صور حيوانات القدماء.

وفي الصباح التالي زرت منطقة الخريطة نفسها، لأتجول في متاهة مجاري أوديتها الضيقة الملتوية، التي تحدها جدران عمودية من الصخور الناعمة كثيرة الألوان، ولنتناول، في الوقت المناسب، غداءنا في ظل صخرة رملية حمراء عظيمة على هيئة فطر وتطل على مجرى عميق أتى من قمة جبل مجاور. وفي أحد الأماكن مررنا تحت قوس طبيعي من الحجر الرملي يمتد فوق وادٍ (أخدود) ضيق، وفي كل منطقة باتساع عدة أميال مربعة كان هناك الكثير مما يثير الإعجاب والدهشة من جمال الطبيعة. ولكن الأمر كان مخيباً

للآمال من جهة إذ أن الصخور الوردية الجميلة لم تبح لي بشيء عن الأجيال التي تجولت بينها قبلي. لقد سرنا سيراً طويلاً مجهداً ما يقرب من أربعة أميال أو يزيد لنراها، والآن لم يبق أمامنا إلا أن نعود أدراجنا بنفس السير الطويل المجهد في الطريق الذي أتينا به، لنصل إلى مخيمنا قبل الغروب بقليل.

وطلع علينا صباح ٢٥ يناير، وهو أشد أيامنا برداً حيث كان الحد الأدنى لدرجة الحرارة في الليل ٥ر٢٠ درجة فهرنهايت وفي الساعة السابعة والنصف صباحاً كانت ٢٣ درجة فهرنهايت، وكنا على استعداد بشكل أو بآخر لاستئناف جولاتنا، على الرغم من أننا لم ننطلق في الحقيقة إلا عند التاسعة والنصف صباحاً.

وفي غضون ذلك، وضعت القوة البشرية المتوافرة لنا كلها، وهم الآن نحو اثني عشر رجلاً، لتنفيذ مهمة شاقة في رفع النقوش الأربعة العظيمة التي وجدناها مطمورة بين الأنقاض المتهدمة في هذا الحرم المقدس فوق الجدران الباقية من واجهة المعبد، لإنقاذها مما قد تتعرض له من مزيد من التدهور والتخريب. وبعد أن انتهينا من ذلك، التقطت صورة للعمال والعمل الذي نفذوه، وغادرنا المكان حيث تحركنا نزولاً في وادي الهواتف، وقد كانت شاحنتانا هما أول سيارتين تصلان إلى روافة، إلا أن الآخرين قد حذو حذونا بعد ذلك، فقد جاءني خطاب من زعل بعد ذلك بحوالي عام يفيدني أن

شخصاً يدعى خالد الفرج، وهو تاجر من القطيف له اهتمامات أثرية، قد زار روافة. وعندما رأيت المعبد مرة أخرى بعد عام واحد كان النقش العظيم ثنائي اللغة سليماً في مكانه حيث تركناه، واختفى النقش النبطي، وأصيب أحد النقوش اليونانية بضرر بالغ في محاولة لتكسيره إلى أجزاء يسهل نقلها، على الرغم من أن محتوياته الجوهرية قد نجت من هذا العمل التخريبي، وكنت ما أزال أستطيع أن أقرأ النقش:

. "Phule Robathoi Kolo M ... Toeierontouto "

وقد اختفى أيضاً حجر كلوديوس مودستوس. ومن المؤكد أن خالد الفرج كان مسؤولاً عن إفساد ما قمت به احتراماً للقدماء، ولكن، ما دام قد توفي في العام التالي فلا لوم عليه. إن مجموعته التي لا يستهان بها من الآثار والنوادر القديمة، التي لم يتح لي أبداً فرصة رؤيتها، على الرغم من أن بعض خبراء أرامكو على دراية بها، قد تكون إضافة قيمة لمتحف جدة، ولكن ليس من المرجح أن السلطات السعودية في الوقت الحاضر سوف تنظر في أمر إهدار المال لشرائها من الورثة.

وقد شقنا طريقنا بوادي الهواتف في سير شاق بشدة على رمل لين بماء المطر وتكسوه بغزارة شجيرات الروثا ونزلنا في شعيب الخور ومنه استدرنا نحو اليمين تجاه الطرف الداخلي لضيقات

الفهدية، حيث قضينا بعض الوقت هناك ونحن نجمع قلة من النقوش الثمودية على جرفه ونلتقط الصور، ولم نستغرق سوى خمس وأربعين دقيقة حتى وصلنا إلى هذه النقطة، التي قد تكون على بعد عشرة أميال من روافة بطريقنا الجديد. وأحسب أن المسافة الحقيقية بين تبوك وروافة لابد وأن تكون حوالي أربعة وتسعين ميلاً، أو أقل قليلاً. وكان الجراد لا يزال بأعداد كبيرة، وقضى عودةُ وقتاً ممتعاً في صيده ووضعه في سيخ لأكله في المستقبل. ومن الطرف الخارجي للمضيق اتجهنا نحو الشمال - الغربي وسرنا فوق سهل الفهم ذي الشجيرات الوفيرة والذي كنا قد أتينا منه، وبعد أن قطعنا شوطاً طيباً بحوالي نصف ساعة، أي سبعة أميال تقريباً، توقفنا لتناول الغداء وجمع النقوش على الصخور المتناثرة في الهبيرة.

ومن هناك واصلنا سيرنا في اتجاه شمال - غرب نحو جبل القواني وسط منطقة الزاوية التي وصلناها في ساعة بالضبط (أي ربما خمسة عشر ميلاً) لنجد محصولاً وفيراً من النقوش على قمة الجبل وعلى نتوءات متناثرة عديدة من الصخور الرملية فيما جاوره. وكانت الشمس قد مالت للغروب عندما انطلقنا مرة أخرى باتجاه الشمال - شمال - غرب نحو أجراف العصيّة البارزة، على بعد أربعة أميال تقريباً بعد قناة وادي الأبيض التي عبرناها بلا صعوبة. وهكذا أتينا لنأخذ قسطاً من الراحة في جزء ناتئ من الجبل في حمى

أجرافه الحمراء الضخمة، التي منحتنا حماية من الريح شديدة البرودة التي كانت تهب علينا بقوة متوسطة من اتجاه البحر طول اليوم، وكانت تهددنا بالاستمرار طول الليل.

وقد انغمست في رفاهية نصب خيمتي ومن ثم قضيت الليلة مرتاحاً بعد عشاء فخم ممتاز، حيث إن التعزيزات التي تلقيناها في روافة لم تنس أن تحضر معها زوجاً من الغنم من تبوك. إن العرب المحليين يسوقون قطعان ماشيتهم إلى منخفضات وأودية تهامة في الشتاء لتفادي البرد القارس في مرتفعات حسمى وعلى الرغم من أنه ليس برداً شديداً بصورة استثنائية حسب قراءة مقياس الحرارة إلا أن له خاصية غريبة في اختراق الجسم ويجب تجربتها حتى يصدقها المرء. ولقد كان الحد الأدنى لدرجة الحرارة في هذه الليلة ٣٦ درجة فهرنهايت.

وقد قضيت الصباح التاليْ في بحثٍ مكثف في صخور الأجراف الملساء بارتفاع ١٠٠ قدم والأرض المنبسطة كالطاولة فوقها لاكتشاف النقوش والآثار الأخرى لثمود. إن مرتفع الزاوية الهائل هذا كله كان مغطى بعدد لا يحصى من الصخور الرملية المتناثرة، الصغيرة والكبيرة، التي نجدها مليئة بالنقوش والرسومات ما عدا قليلاً منها، ويبدو أن العصيّة كانت مركزاً محبوباً للتجمع على نحو خاص، مثلما هي في الحقيقة حتى يومنا هذا. إن الكهوف

والمغارات الكثيرة المختلفة عن الأسطح المنبسطة لأجرافها يستخدمها بنو عطية بانتظام كمستودعات لتخزين أمتعتهم ومؤونتهم من القمح، والدقيق، والتمر، والأرز، والأدوات البسيطة من تجارة الرعاة، بل وحتى الملابس.

هذه المخازن مملوكة على المشاع للعوائل أو لمجموعات أكبر منها، وأي فرد منها له الحق في ما يحتاجه منها عندما يكون قريباً أو في المنطقة المجاورة لها دون أي إجراءات رسمية إلا تسجيله اسمه، كما كان يحدث، حيث يقوم فقط بنقش وسم على الصخر ليبين أنه قد زار المستودع، وعلى فترات دورية يجتمع أصحاب الوسوم في مجلس القبيلة لحساب ودفع مقابل ما سحبوه من المخزون العام. ويقال، ربما بصدق تام، إنهم لم يغشوا بعضهم أبداً، ونظراً لسمعتهم الشريرة في المنطقة فإن ثقتهم ببعضهم البعض تبرهن على أنه يوجد "شرف بين اللصوص".

إن أسوأ جريمة يفعلونها ضد أنفسهم والمجتمع هي التدمير المتهور لأشجار الطلح والأنواع الأخرى من السنط، تلك الأنواع الوفيرة بكثرة في المنطقة، عن طريق قطع فروع كاملة منها لتغذية قطعانهم المجتمعة تحتها. ولقد رأيت مراراً فتاة صغيرة ومعها عصا غليظة في أعلى الشجر وهي تهوي بها على فروعها بلا هوادة، وليس في ذهنها

شيء غير الحاجة الحاضرة من توفير الغذاء لحيواناتها، وربما في يوم ما سوف يتعلمون أن تقليم الأشجار بعناية في المواسم الملائمة سوف يزودهم بنفس القدر من العلف بدون تدمير مصدره. وما يقوم به قاطعو الأشجار لاستعمالها خشباً أو فحماً يعد أكثر تخريباً بل جريمة أشد خطراً، على الرغم من عدم وجود أعداد كافية من الأشجار لتجذبهم في منطقة الزاوية. ولقد رأيت في أماكن أخرى الأشجار وهي تحرق حية لتحويلها إلى فحم يذهب إلى أسواق القرى والمدن.

في أحد الكهوف الكبرى بجبل العصيّة المواجهة للجنوب - الغربي، وجدنا منصة دائرية من الجبس (الجص) قطرها اثنا عشر قدماً، تحتل أرضية الكهف المنحدرة برفق ويبلغ ارتفاعها من مستوى الأرض الخارجي أربعة أقدام، وينخفض هذا العمق إلى ثماني عشرة بوصة في الطرف الداخلي للكهف، وكانت تبدو عتيقة، وقد أكد لي الأدلاء أنها لا تؤدي أي غرض في العصر الحديث، على الرغم من أنهم قد أصيبوا بالحيرة والارتباك عند تخمين ماذا قد تعنيه للأقدمين، ويحتمل أن تكون لها أهمية دينية عند قوم ثمود الذين لا تزال علاقتهم لما يسمى بالنقوش الثمودية موضوعاً للجدل بين الخبراء. إن هذه النقوش توجد بكثافة متفاوتة على طول غرب الجزيرة العربية كله من منطقة البتراء حتى اليمن، بينما تتوغل نحو الشرق حتى خط طول الرياض. هذه الحدود تتجاوز بكثير الموطن

التقليدي لقبيلة ثمود، مثلما هو معروف في الأدب العربي، ويبدو أن الاستنتاج النهائي يمكن أن يكون أن كلاً من الخط (الكتابة) واللغة، باختلافاتهما المحلية، قد انتشرا بين جميع قبائل العرب في المنطقة في ذلك الزمان، ويشمل ذلك البدو الرحل وساكني القرى على السواء.

من هم إذن المؤلفون الحقيقيون لثلاثة عشر أو أربعة عشر ألف نصٍ ثموديٍ معروفة لدينا الآن ؟ مقابل ما قد يصل إلى ٢٠٠٠ أو نحوها من النصوص (في شمال الجزيرة العربية) التي توافرت لدى بيير فان دن براندين عندما نشر عمله الفذ عن النقوش الثمودية، وهو أول دراسة كاملة عن الموضوع؟ يقول البعض إنهم هم -بصورة حصرية- المسافرون بالقوافل، العابرون أو الناقلون للبضائع على طرق التجارة بالصحراء، ومن الواضح أن بعض النصوص كانت من عمل محترفين منهم.

ومن ناحية أخرى، فإن موقف المجموعات الكبرى التي تم جمعها من هذه النصوص والكتابات في مناطق أشد نأياً بالصحراء، وعلى قمم الجبال ومواقع أخرى تتطلب وقتاً أكبر للتجول مما يكون متاحاً للمسافرين بالقوافل، يوحي بقوة أنها من عمل الرعاة وهم يراقبون قطعانهم، أو يهدرون الوقت سدى مع عذارى الصحراء، أو حتى يحرسون خطاً دفاعياً ضد أعداء مغيرين، أو رصداً لإشارات ظهور

الأعداء. وهؤلاء الناس ربما كانوا بدواً من قبائل الصحراء أو القرويين المتسببين لهم. وهكذا فلا مندوحة من الاستنتاج القائل: إن كلاً من مسافري القوافل والبدو قد أدوا دوراً في إنتاج هذا الكم الهائل من الأدب.

إنّ وجهةَ نظري، التي أغامر وأقدمها وبقدر ما تستحقه، هي أنه، بينما كان ساكنو الصحراء، سواء البدو الرحل أو القرويين هم الذين تركوا هذه الكتابات، فهم أيضاً الذين قدموا الرجال لمهنة نقل البضائع مثلما فعلوا بحق منذ أقدم العصور حتى السنوات القليلة الماضية، عندما حل محلهم سائقو الشاحنات المحترفون. وفي مناسبات متكررة كانت طرق القوافل تستخدم أيضاً من قبل الطبقات "المتعلمة" من مراكز الحضارة والحكم الكبرى، وهذا ما يشهد عليه وجود كتاباتهم الأكثر إتقاناً وتأنقاً في تلك المناطق نفسها، وهؤلاء هم السبئيون والمعينيون والقتبانيون وغيرهم، وهكذا فالجدل حول أحقية البدو أو عابري القوافل بهذه الكتابات قد يبدو غير ضروري في وجه الدليل الساطع المتوافر الآن بشأن انتشار معرفة القراءة والكتابة على نطاق واسع بين العرب في غرب الجزيرة العربية خلال عصور ما قبل الإسلام، ومن ذلك الحين لم يُعرف لسكان صحراء الجزيرة العربية بروز مثل هذا في مجال التعليم بالمعنى المعاصر للكلمة.

ومهما يكن من أمر، فإن هضبة حسمى كانت كلها مكتبة هائلة ومعرضاً للصور في أدب وفن العرب القدماء، تضارع المنطقة المجاورة لتيماء والمراكز الكبرى في الجنوب، مثل القهرة والقرة.

ومن قمة العصيّة، حيث كانت الريح الباردة تهب علينا بقسوة ونحن ندرس موقع الأرض وأوضاعها، استطعنا أن نرى أن وادي الهواتف لم يكن بعد كل شيء رافداً من روافد شبكة الأبيض، ولكنه يشكل رأس وادي سليسية، الذي كان تدفقه الخارجي من فوق حافة الهضبة الآن إلى الجنوب تماماً منا. ولا يبعد التقاء ديثان ورويان مع الأبيض إلا ميلاً واحداً منا إلى الجنوب - الغربي، في حين كان حوض الشقرى الذي كانت تصب فيه القناة المتحدة إلى الشمال قليلاً من الغرب، وإلى الشمال الغربي منا تقع التلال الصغيرة الرائعة في منطقة تسمى السد التي اتجهنا نحوها ونحن نواصل سيرنا.

وفي الطريق، بعد ما يزيد قليلاً عن ميل، أتينا على ثلاثة صخور رملية ضخمة عند حافة بحيرة عظيمة تماماً مملوءة بالماء، تعرف باسم العويصية التي تصرف مياهها إلى الأمام تجاه منطقة السد، في حين كانت شبكة الأبيض، قد غيّرت اتجاهها الآن مبتعدة عن طريقنا إلى اليسار وهي في طريقها إلى الشقرى.

ولقد صادفنا سرباً عظيماً من الجراد، مستقراً على الأرض حول شجيرات الروثة المنتشرة في السهل، ولقد دهست عجلات السيارات منه بالآلاف دهساً، وما كان لديه قوة على النهوض والطيران كان يلتصق بزجاج السيارات الأمامي والمبرد (الراديتر). وكان من الواضح أن برد الليل قد أصابه بالخدر، على الرغم من أننا كنا قرب الظهر عندما واجهناه.

وواصلنا السير على طول جبل الأخرم على يميننا لنصل إلى سبخة طينية واسعة وصخرة المقلوّية الضخمة المعزولة في وسط السبخة التي تصرف أيضاً مياهها تجاه السد. وبعد أن قطعنا حوالي عشرة أميال من العصّية وصلنا إلى الطرف الشمالي للأخرم، حيث توقفنا لدقائق قليلة لفحص مجمع الصخور الرملية في منطقة السد، القريبة أمامنا، قبل أن نتحول لاتجاه الشمال - الشرقي على طول صخور الشعرة المتقطعة حتى جبل باير الضخم من الحجر الرملي الرمادي.

ويحتل هذا الجبل منطقة ضخمة في صدر المنحدر الذي صعدنا منه، ومن ثنية في وسطه ينحدر مجرى رملي فيه الكثير من ينابيع الماء، " مشاش " التي تكوّن عدداً من البرك الضحلة، القذرة، المغطاة بمادة لزجة أو رغوية. وكان الجبل يرتفع مئتي قدم وبه منحدرات سهلة وعدد من القباب، تمثل مشهداً موحشاً مع مغارات

منحوتة في جرفه. لقد زار موسل هذا المكان بحثاً عن النقوش ولم يعثر على شيء، على الرغم من أنه استطاع بشق الأنفس أن يفحص الموقع بهمته وقوته المعهودة. وقد وجدت قدراً وفيراً منها وكانت النقوش هنا تبدو أشد قدماً من تلك الموجودة -على سبيل المثال- في العصّية، وكان بعضها قد أتلفته عوامل الطبيعة بصورة سيئة، ومن المحتمل أن تكون عمليات التفتت سهلة نسبياً في الصخور الرمادية مما يعطي انطباعاً بعمر أقدم للنقوش.

وعلى كل حال، فإن أحدث هذه النصوص الثمودية لابد أن يكون عمره حوالي ٢٠٠٠ عام، على الرغم من أن بعضها كان يبدو جديداً بصورة مذهلة، وليس من شك في أن ذلك يعتمد كثيراً على نسيج الصخور ومدى التعرض للعوامل الجوية. ومن سوء الحظ أن قمة باير لم تمنحنا النظرة الواسعة التي كنت أرجوها من موقعها المرتفع، لأن الضبابَ الكثيف كان يلف المنطقة من جميع جوانبها على الرغم من الشمس الساطعة، مصحوباً ببرد قارس ولكن الرياح كانت معتدلة وكنت أنا وعودة سعيدين بدرجة كافية عند مغادرة القمة والانضمام إلى رفاقنا حول نيرانهم في الوادي، حيث تناولنا طعام الغداء قبل استئناف سيرنا.

وقد توجهنا نحو الفجوة بين برقة العيد على اليسار، وجبل العقير الذي تجاوزنا طرفه الشمالي خلال عشر دقائق وبعد ذلك سرعان ما

انغرزت الشاحنتان بصورة سيئة في رمل المرتفعات الكثيف، الذي كان يشتد فوقه الضباب بسرعة.

وقد توقفنا للحظات قليلة لجمع بعض النقوش من صخرة بارزة في جبل العقير، وبعد أن قطعنا حوالي اثني عشر ميلاً من السير المتواصل من جبل باير، وصلنا مرة أخرى إلى مساراتنا الخارجية، وتوقفنا انتظاراً للشاحنة الأخرى (اللوري) التي كانت قد انغرزت مرة أخرى، وكان موقع مخيمنا في جبل الرضى على بعد أميال قليلة إلى الجنوب - الشرقي، وكان جبلا الرضى والدفين وكلاهما منخفض ومتقطع، يحيطان عموماً بمنطقة واسعة من أرض المراعي الرملية.

وسرعان ما وصلنا واستدرنا نحو ممر الزور، وكان علينا أن نقطع حوالي اثني عشر ميلاً من هذه النقطة حتى نصل إلى الطرف الشرقي لممر الفوهة. والآن، بدلاً من أن أستمر في السير على طول الدرب المألوف حتى تبوك مثلما كان رفاقي يأملون بلا ريب، استدرت بصورة مفاجئة لليمين عبر وادي الغَليل المرتفع، وبشكل أو بآخر على طول سفح جبل الفوهة، إلى أن وصلنا منطقة شديدة الوعورة من ألواح وشظايا الصخر الرملي التي تشكل طريق الاقتراب والدخول إلى قناة وادي العُوَيْند، ولم ندخل إلا بعد غروب الشمس، وفيه حططنا رحالنا ونصبنا مخيمنا فوراً تقريباً بالقرب من

كمية هائلة من شجيرات الغضا، وفوهة الخاقوق البركانية ذو القمة المسطحة السوداء ترتفع فوقنا عن قرب وجبل المويعز والعناصر البركانية الأخرى في الخلفية. لابد أننا قد نزلنا حوالي ألف قدم من الجبل حول الرضى، وكان اعتدال الطقس في الليل أتاح لنا نقيضاً مفرحاً للبرد القارس الذي قاسينا منه مؤخراً على الهضبة، وكانت السماء صافية تماماً، بيد أن حجاباً قاتماً وكثيفاً من الضباب الأرضي كان قد انتشر فوق الوادي، وكانت سيارة اللوري التي جاءت لإنقاذنا ونجدتنا من تبوك قد عادت إلى هناك من ممر الفوهة، وعدنا الآن إلى أعدادنا الأصلية، مع زعل واثنين من رجال الشرطة، عطا الله وعبد الله بن قعم، وطبعاً السيد الذي لا يستغنى عنه، وقد سمح للأدلاء من بني عطية بالرحيل، مع مكافأة مجزية عن خدمتهم الأمنية، فور أن وصلنا مساراتنا الخارجية في منطقة الرضى.

وقد أدى وصولُنا المتأخر وعشاؤنا على النذر اليسير جداً، الذي تم إعداده على عجل، إلى نومنا جميعاً مدة أطول مما ينبغي، حتى إن الشمس الشاحبة، التي كانت تصارع للظهور من خلال الضباب الفريد، قد ارتفعت تماماً قبل أن أستيقظ للصلاة والشاي حوالي الساعة السابعة صباحاً، وكان سخط واستياء رفاقي، الذين كانوا يقصدون جذب نظري إلى حد ما -وهم كانوا يأملون بلا ريب في قضاء الليلة بين أحضان زوجاتهم في تبوك- قد ألهمني لإلقاء درس

عليهم عن موضوع الواجب والفضيلة. ولقد استطعت أن أذكّرهم بأن سببي الوحيد لزيارة وادي العويند هم أنفسهم -عندما كنا على مسافة بعيدة عن هذه البقعة- فقد حدثوني بحماس نسبي عن بعض الآثار الهامة في الوادي بجوار مكان سمّوه البيبان وهو مسمى شائع لقبور الأنباط الصخرية.

واقترحت الآن أن نزور هذه الأبواب وكلما أسرعوا لي في العثور عليها، نكون قد أسرعنا في العودة إلى تبوك، وكان الوادي الواسع المغطى بالأشجار الخفيفة يمتد أمامنا منذراً بصعوبة مرور الشاحنة، وبعد حوالي نصف ساعة من السير بدا من المؤكد أن احتمال تقدمنا أكثر من ذلك في الوادي ليس مشجعاً، إن لم يكن خطراً؛ ولذلك استدرنا إلى واد جانبي، لنخرج في مدرج طبيعي رائع من الصخور والجروف الجميلة، يسمى حدقَ الذيب (أي دائرة الذئب).

وكان إغراء تسلق هذا الحاجز ورؤية ما يمتد وراءه لا يقاوم، وحيث إننا قد تركنا تجهيزاتنا خلفنا مع عطا الله في مخيمنا الليلي على أمل أن نعود إليه في الوقت المناسب، فقد قلت للسيد أن يرجع إلى هناك بالشاحنة، في حين انطلقت أنا مع زعل وعبد الله على منحدر الحجارة، عازمين على أن نضرب في وادي العويند حتى أعلاه ونعود مع مجراه بعد رؤية الآثار التي قالوا عنها. وكان على

اللوري أن ينتظر ساعة في المدرج إذ لم نستطع أن نمضي قدماً في تنفيذ خططنا، ولم نكد نسير مسافة بعيدة حتى قررت أن يعودَ زعل -الذي كان من الواضح أنه لا يألف هذه الأرض- إلى الشاحنة ومخيمنا لكي يقابلنا لاحقاً في أثناء اليوم. والآن كنا قد وصلنا قمة المدرج بعد صعود شديد الوعورة في آكام الحجارة والجروف، وقد استغرق ذلك منا حوالي ساعة، على الرغم من أن الارتفاع لم يكن يزيد عن أربع مئة قدم تقريباً فوق سطح الأرض.

وهنا اكتشفت أننا كنا على امتداد جنوبي - غربي من جبل الفوهة (أو سلسلة أم جلد) ومنه نزلنا في واد وصعدنا في آخر (وكلاهما رافدان من وادي العويند عن يسارنا) حتى تل واسع وعر، الذي قادنا إلى سفح منحدر حاد من الرمل الصافي سعته ٥٠٠ قدم، وهو يرتكز بثبات على جبل أكثر صلابة، وببعض التسلق الشاق وصلنا قمته، وتوقفنا لبرهة لنرى المشهد؛ كانت فوهة الخاقوق البركانية المطلة على مخيمنا تتجه نحو الشمال - الشمال - الشرقي، والجزء الجنوبي من جبل الفوهة في الشمال - الغربي تقريباً وقريباً منا تماماً، كما أن حافة وقرن مدرج الذئب في الشمال - الشرقي، وعلى يسارنا يمتد خط وادي العويند، مع ثنية واسعة لليمين حتى حوض كبير كان يقع أمامنا في جهة الجنوب، وفي زاوية الثنية وعلى الضفة اليمنى يرتفع تل هائل يدعى حمراء شواربي بينما كان يمتد على

مسافة غير بعيدة باتجاه مجرى المياه منه على الضفة اليسرى للوادي مرتفع يعرف باسم خشم عساف.

وهنا، كان بنو عطية، في الأيام الأولى لسيطرة السعوديين على المنطقة، قد هجموا على قافلة سعودية ضخمة كانت تحمل الإمدادات والمؤن لتبوك من الوجه، وكان يرافقها ناصر بن عساف، وهو مواطن من الرس في القصيم، والذي كان سيخلف محمد بن شهيل، أول أمير سعودي على المنطقة، وقد قُتل ناصر نفسه في هذه العملية، ولا شك أن لصوص وقطاع الطرق من بني عطية قد عوملوا بما يناسبهم، إلا أن التاريخ لا يذكر لنا البعثةَ التأديبيةَ؛ التي أعقبت هذا الحادث القبلي؛ لسلطة ابن سعود، وكان هذا قد حدث في ١٩٣٠، وبعد ذلك بسنتين، وفي أثناء عودتي من رحلة الربع الخالي، وجدت محمد بن شهيل قد نصب أميراً على تربة البعيدة إلى الجنوب، ويذكر هذا الحادث على أنه قد وقع في السنة نفسها التي حدث فيها تمرد الدويش (١٩٢٩ - ١٩٣٠م) ضد ابن سعود في شرق الجزيرة العربية، والذي قام خلاله عبد العزيز بن مساعد، أمير حائل، بقتل عبد العزيز بن فيصل الدويش في أم رضمه على الحدود مع العراق.

وقد تخلصت من حذائي لتسلق المنحدر الرملي الكبير، وأنا ما زلت حافي القدمين، وغالب سيري على الجانب المعاكس للمنحدر

الرملي من الجبل تجاه السهل المتسع لوادي العويند. لقد استغرقنا حوالي نصف ساعة للوصول إلى الضفة اليسرى من الوادي بعد المرور بين تلين غير مميزين قال لي عبد الله: إنهما "البيبان"!! وقد بحثت بأقصى ما يمكن لأعثر على شيء في أي من التلين يبرر الأحلام المفرطة التي استحضرها ذلك الاسم في ذهني عندما ذكر لي أول مرة.

لقد كانا مجرد تلين عاديين جداً بينهما درب للإبل القادمة من ضباء اختصاراً للطريق لتفادي الثنية الواسعة للوادي، وبدا عبد الله الآن غير متأكد قليلاً من موقع بئر العويند، وقررنا أنّ أفضل سبيل نتبعه هو أن نسير في مجرى الوادي باتجاه التيار إذا كنا نريد أن نصل مخيمنا في وضح النهار، وأصبحنا الآن في الظهر، وانطلقنا في رحلة العودة، على أننا لم نكد نمضي خطوات قليلة حتى جذب انتباهي شيء ما غير عادي في المنطقة التي تحيطها ثنية الوادي. وحيث إنه لا يزال أمامنا وقت وفير، فقد عزمت على إشباع فضولي، ولم نستأنف سيرنا باتجاه مجرى التيار إلا بعد ذلك بساعتين، ولشدة دهشة عبد الله، الذي أخبرني أصلاً بآثار العويند، وجدنا أنفسنا في وسطها، فقد كانت مستوطنة قديمة مهدمة ذات حجم عظيم، بمبانيها المتهالكة من ألواح الحجر الرملي التي تحتوي على عددٍ مرض جداً من النقوش الثمودية، ولم يكن هناك سوى

قليل من البقايا المتهدمة لمساكن بسيطة على السطح تحكي قصة هذا الموقع القديم، وساد عندي انطباع أن النصوص الثمودية على الصخور المتناثرة قد تكون سجلت منذ حوالي ٢٠٠٠ سنة مضت على أنقاض قرية أشد قدماً بكثير، ووحدها مسحاة علماء الآثار هي التي يمكن أن تفيدنا بشأن هذه المشكلة. وأرضيت نفسي باستنساخ النقوش.

وفي غضون ذلك كان عبد الله، بعد أن اشتكى من الظمأ، قد طلب إذناً وناله مني للبحث عن البئر، الذي وجده في الوقت الملائم على بعد حوالي ميل عكس مجرى التيار، وكنت قد انتهيت بشكل أو بآخر من عملي عندما عاد، وتأخرنا للحظات ونحن نتناول غداءنا البسيط من البسكويت والتمر، وكان معي حافظتي (الثرموس) مملوءة بالشاي المر لبلع ما أكلناه، ولكن عبد الله رفض دعوتي للشاي، قائلاً إنه وجد البئر وروى ظمأه. وقد شربت باقتصاد لأحتفظ ببعض الشاي للرحلة الطويلة الشاقة التي تواجهنا، وفي حوالي الثانية ظهراً بدأنا المشي نازلين في الوادي، وبعد ربع الساعة تقريباً تركنا حوض الوادي لنسير بمحاذاة رف في جرف الضفة اليسرى، التي تلتزمها الإبل المارة تفادياً للرمل الكثيف المتراكم على ثنية أخرى في الوادي، وفي الوقت المناسب عدنا إلى الوادي مقابل جبل الشواربي، وصادفنا قبراً مبنياً بصورة بسيطة من

ألواح الحجر الرملي، يبدو قديماً من مظهره على الرغم من أنه يحتمل أن يكون قبر ناصر بن عساف نفسه. ونحن ما زلنا جاهدين في السير توقفنا عند الرابعة لصلاة العصر في نقطة شبه مستوية مع دائرة الذئب، حيث كنا نأمل أن نجد الشاحنة في انتظارنا، ولم يكن هناك أي أثر أو صوت لها حيث واصلنا السير ببطء وتثاقل ونحن نمني أنفسنا بأمل بعد أمل أنها قد تأتي لإنقاذنا من يأسنا المتزايد، وخلال ذلك اعترف لي عبدالله بأنه وجد بئر العويند جافة، ولم يشرب شيئاً منذ أن غادرنا مخيمنا في الصباح، في حين كان معي حوالي نصف حافظة الشاي. وطلبت التوقف عند الساعة الخامسة عصراً للقضاء على ما تبقى معنا من الشاي ونحن واثقون من أن الشاحنة ستأتي لمقابلتنا، في أي ساعة كان. وأصر عبد الله أن أشرب أكبر قدر، ولم أستطع إغراءه بشرب نصيبه إلا بالتهديد بأنني سوف أريقه على الرمل. في جميع تجاربي وخبراتي بالجزيرة العربية لم أواجه أبداً مثل هذا البيان المؤثر للإخلاص والإيثار والتضحية بالنفس؛ لقد كان الرجل يموت من العطش، ولكنه يأبى الهزيمة.

وقبل الغروب مررنا على لوحة إرشادية كأنها وضعت لإبعاد الطيور ولكنها في الواقع تشير إلى اتجاه حوش أحد الرعاة، وبعد ذلك بقليل مررنا على كومين صغيرين من الحجارة يدلان على قبرين يشهدان على أحد جرائم البدو. وفي الغسق رأينا أثر المسارات

الخارجة والراجعة لشاحنتانا، التي التزمناها حتى اشتد الظلام بدرجة لا يمكن تعقبها بعد ذلك، ربما كان مخيمنا غير بعيد، ولكننا يمكن أن نضل بسهولة في الظلام، وليس هناك من أي إشارة لنيران المخيم، ولذلك عزمنا على أن ننام حيث كنا، بلا ماء أو عشاء كما أوقدنا ناراً لنجذب انتباه جماعتنا، وندفئ أنفسنا ونحن نحاول جاهدين أن ننام في هذا الليل القارس، ولم نتمكن من رؤية الشاحنة إلا بعد شروق الشمس قادمة نحونا من الاتجاه الذي أتينا منه منهكين.

لقد قضى رفاقي الليلة في مدرج الذئب، على الرغم من أنني قلت لهم إننا لن نعود إلى هناك حيث نويت العودة نزولاً من وادي العويند، بل إنهم حتى لم يرسلوا مراقبين لرصد مرورنا، بالرغم من أنه وبعد فوات الأوان، قضى عطا الله الليل مع بعض البدو فوق الإبل يبحثون في الوادي عن آثار سيرنا، التي وجدوها في النهاية. وعموماً، فكل ما ينتهي على خير فهو خير. وكان لي ولعبد الله سبب قوي في شكر النعم التي أولتها لنا العناية الإلهية، على الرغم من أن ردنا على هذا الموقف كان مختلفاً بشدة؛ فقد ملأ بطنه بالماء، في حين انتظرت أنا كوباً من الشاي، فلم أكن أشعر بالظمأ ولا بالجوع، حيث إنني أتميز عنه بتدخين التبغ خلال فترات سهرنا.

وسرعان ما نسينا متاعبنا، على الرغم من أننا لم نتمكن من تنظيم أنفسنا بصورة كافية إلا في العاشرة صباحاً تقريباً لننطلق باتجاه الشرق عائدين. وعندما وصلنا المضيق بين برقة سميحان وبرقة دمج كنا قد وصلنا الدرب المألوف، وبعد ذلك بزمن وجيز توقفنا مدة عند صخور المعيقيلة لنقل بعض النقوش الباهتة واستنساخ صورٍ لافتة للنظر للفرسان وراكبي الإبل على الرغم من حداثتها الواضحة، وخلال نصف ساعة كنا قد عدنا مرة أخرى إلى بيت الضيافة في تبوك، حيث استطعت أن أقدم لعلي ثروت انطباعاتي عن رحلتنا أثناء العشاء المبكر الذي قدمه ترحيباً بنا، وقضيت ما تبقى من الليل في معالجة القدر الكبير من البريد، الذي وصل في أثناء غيابنا، وهو أول بريد يصلني منذ أن غادرت المدينة منذ أربعين يوماً مضت.